AL'ANJARI

محمد نافع العشيري

الأنجري

فريق متميزون
E-BOOK

KOTOPIA PUBLISHING HOUSE
كتوبيا للنشر والتوزيع

رواية

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:
هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.
مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الأجري

رواية

الكاتب: محمد نافع العشيري

إهداء..

إلى الصديق نور الدين وفراسي: «كنت تنتظر روايتي الأولى؛ فها هي بين يديك ، وعسى ألا تكون الأخيرة».

يقول تولستوي في قصة «ثلاثة أبناء»: الناس يظنون أن بوسعهم العيش وحدهم دون الله؛ ويتصور البعض أنهم أعطوا الحياة ليتسلوا؛ وهم يتسلون ويبددون حياتهم، وعندما يأتي الموت لا يفهمون لماذا أعطوا الحياة التي تنتهي لذّاتها بالآلام والموت.

وهؤلاء يموتون، وهم يجدفون على الله وينفصلون عنه.

ومن الناس من يحسب أنهم أعطوا الحياة ليدرسوها ويحسنوها، وهم يعملون ليصنعوا لأنفسهم حياةً أفضل؛ لكنهم حين يحسنون هذه الحياة يفقدونها ويحرمون أنفسهم بأنفسهم من الحياة.

كل ما نعلمه عن الله هو أنه يهب الناس الخيرات ويأمرهم أن يفعلوا مثله الشيء نفسه، فلنفعل إذن الشيء نفسه: «الخير للناس». وما إن يفعلوا حتى يأتي الله إليهم ويقول لهم: هذا ما كنت أريده. افعلوا معي ما أفعله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إشارة

«أَذَّنّ في الناس بسحر السّرد، فنطق مرّة بلسان الغابر الظاهر، وتتكّر مرّة في هيئة أبي زيد السروجي، وتمثّل مرّة في صورة الحكيم، ولبس مرّة رقعة المتصوف، فجعل أفئدتهم تهوي إليها».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقام الأول: مقام العودة

هذه الأرض جلد عظمي
وقلبي..
فوق أعشابها يطير كنخلة
علقوني على جدائل نخلة
واشنقوني فلن أخون النخلة

محمود درويش

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحركت السفينة كعجوز تخونها ركبتاها، وبدأت تشق الماء ببطء وسط أمواج مسالمة يداعبها ريح الشرقي الذي يهبُّ كثيرًا في هذا الوقت من السنة. وقف على سطحها يرتشف فنجان قهوة سوداء مرّة، وقد وضع قدمه اليمنى على أحد القضبان الحديدية البيضاء التي تحيط بسطحها الأخضر. الريح تداعب خصلات شعره، ورذاذ الماء المالح ينعش جلده. كان طفلان يطاردان بعضهما البعض تحت نداءات والدتهما، في حين وقف أغلب المسافرين، وقد هدَّتهم المسافات الطّويلة التي قطعوها قبل الوصول إلى ميناء الجزيرة الخضراء، يتأملون زرقة البحر الممزوجة بخضرة باهتة، ويشيرون إلى سفن تجارية ضخمة بحاوياتها الكبيرة، وهي تعبر الزقاق. بعضهم يلتقط بهاتفه صورًا للمناظر الجَّميلة التي تناديهم من بعيد، وبعضهم الآخر يأخذ سيلفي للذكرى. في زاوية كان أجنبيان يتعانقان في هدوء، وينظران إلى الدلافين التي تتقافز في الماء. حلَّقت النوارس فوق الباخرة، وهي تزعق بأصواتها القوية كعسس يرافق موكب السلطان، وفي الأفق تراءى له جبل موسى الرماديِّ، الذي يشبه بداية فصل الخريف. كان يبدو من بعيد كامرأة راقدة رقدتها الأبدية، وقد وضعت كفيِّها فوق صدرها، وبجانبه جبال مشبعة بالخضرة تسير في سلسلة منتظمة. كانت بيوتات بيضاء تظهر من بعيد، وفي أعالي جبل تغرامت تنتصب مراوح هوائية تشبه قبور النصارى، وهي تجتر الهواء بيقين. تخيَّل دون كيشّوت عاريًا بجلده الملتصق بعظامه، وهو يحاول أنْ يطعنَ برمحه طواحين الهواء. أسنده خادمه سانشو من الخلف؛ لكي لا تطوّح به الرياح القويّة بعيدًا، بينما وقفت روثينانته تراقب المشهد بفضول، وقد تدلى مشفرها السفلي، وهي تضرب بحافرها الأرض.

صاح دون كيشوت دي لامانتشا بقوة:

- هذه معركتنا النهائيّة يا سانشو سنطهّر الأرض من الظّلم والفساد والرّذيلة، ونحقق حلمنا وحلم كلّ الفرسان الجوّالة في نشر الحقّ والسّلام.

قال سانشو في نفسه:

- أحلام طائرة وأوهام سائرة. إنها مجرد مراوح لتوليد الطاقة الكهربائية تصنعها شركة «سيمنس» في منطقة الشرافات أيها المجنون! ولكن من يدري، ربما يعيّنني سيدي حاكمًا على أنجرة كلّها إذا فاز في هذه المعركة الحاسمة.

ابتسم قليلًا، لكن سرعان ما عاوده حزن خفيف، فتذكر أبياتًا كان يحفظها لأحد علماء قبيلة أنجرة:

روحي قبيلة أنجرة
مهد البطولة والقرى
قوم تساموا بالصفا
مثل الشموس على الورى
في أرضهم نبت الجمال
ولم يغادر مدشرا
فاسأل ملوسة عنهم
قصر المجاز الأشهر
تنبئك زميج الوفا
عن محتد متجذرا
أرض العلوم شيوخها

في منبر متصدرا
حفظوا الكتاب مرتلًا
ملأ الصدور منورا
بيض الوجوه أولو النهى
أحلامهم تطأ الذرى
فاخفض جناحك إنهم
لحن جميل أبهرَ

على يساره بدا جبل طارق قانعًا بانحداره الشديد. من هنا مرَّ طارق بن زياد قبل ثلاثة عشر قرنًا، قال في نفسه: «تخيل السفن المشتعلة وهي تنطفئ كنهاية النّهار وسط الماء البارد، وأسراب الخيول العربية والبربرية تقفز منها وقد تطاير الرذاذ من تحت حوافرها، وتبللت أعرافها فبدت كحورية أفريقية خرجت للتشمّس. كان صهيلها يثير الأمواج فترتمي بقوة على الصخورِ الملساء في منحدرات الجزيرة الخضراء، وتكبيرات الجنود المندفعة تبعث في الأفق رهبةً وخشيةً. على صخرة ضخمة وقف طارق بن زياد بجسمه النحيف وعينيه الحادتين التي جمعت كلَّ إصرار الدنيا، يخطب بعربية بسيطة، ويتبع كل جملة فيها بترجمة إلى الأمازيغية».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد: «أيها الجنود الشجعان! لقد أُحْرِقت السُّفن لكي لا ندع طريقًا للهرب ونحقق الأمل المنشود في فتح هذه البلاد التي سام فيها «رودَريغو» أهلها الظلم والقهر. أيها المجاهدون! ها هو ينتظركم بجيشه، فقوموا إليه وأروه قوّة العرب وشجاعة الأمازيغ. أيها الجنود الشجعان! ما جئنا إلى هنا طمعًا في غنيمة ولا أملًا في أرض، فكونوا خير ممثلين لتعاليم ديننا. لا تقتلوا شيخًا ولا صبيًا ولا امرأة ولا جريحًا، ولا تقطعوا شجرًا ولا تحرقوا بيتًا، واعلموا أنّما النّصر صبر ساعة! وأنَّ الله مع الصّابرين».

هكذا تخيّل الخطبة دون زخرفة ولا صنعة مربكة، كتلك التي قرأها في كتب الأدب. كلمات نابعة من قلب هذا الأمازيغيّ الفذّ، من المحتمل أنها حركت القلوب وبعثت الهمم.

في الطرف المقابل كان جنود «رودريغو» يصطفون في انتظام. الرماة في الصف الأول، ويليهم الفرسان الخيالة، وبعدهم المشاة. وأمام الجميع وقف «رودريغو» بقفطانه الأحمر، وقد جلس على فرسه المطهّم، وهو يخطب باللغة القشتالية: «أيها الجنود المغاوير! يا أبناء الربِّ وحماة دينه! ها قد جاءكم المحمديون يريدون أن يحتلوا أرضكم ويسْبوا نساءكم ويتّموا أطفالكم ويسلبوا ممتلكاتكم. فقوموا إليهم قومة رجل واحد، واغرسوا في قلوبهم الوثنية سيوف المسيح».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مكان بعيد عن الجيشين المتقابلين، رأى «يوليان الغماري» وهو يحبس أنفاسه، وينتظر بلهفة انتهاء المعركة للانتقام من «رودريغو» الذي أهانه في شرفه وأراق ماء وجهه.

تقرع الطبول، فيلتحم الجيشان. تصلّ السيوف، تتخرق الأجساد بالرماح، تشد الألجم، تخترق السهام الأعناق، تطيح الرؤوس، تسقط الدّروع، تنزلق السّروج، تتعثّر الخيول، تُبقر البطون، تقطع الأيدي، تعطب الأرجل، يعلو الغبار، يشتد الصّراخ، يختلط التكبير بصلوات الربّ، فتسكت الساحة إلا من

أنين متقطع وصوت «رودريغو»، وهو يرمي بنفسه في الماء. ينزل الغبار كوحيّ سماويّ، وتعلو الرّاية البيضاء وهي تقارع قرن الشمس، فيقف طارق بن زياد وهو يقرأ «كتاب الصلح».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب من موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش، أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته، وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم، ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه، وأنهم لا يقتلون ويسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ولا يكرهوا على دينهم، ولا تحرق كنائسهم، ولا ينزع عن ملكه ما تعهد ونصح، وأدى الذي اشترطنا عليه، وأنه صالح على سبع مدائن: «أوريوالة، وبلنتلة، ولقتن، ومولة، وبقسرة، وأية، ولوقة»، وأنه لا يؤدي لنا إبقاء، ولا يأوي لنا عدوًا، ولا يخيف لنا أمنًا، ولا يكتم خبر عدو علمه، وأن عليه وعلى أصحابه دينارًا كل سنة، وأربعة أمداد قمح، وأربعة أمداد شعير، وأربعة أقساط خل وقسطي عسل، وقسطي زيت، وعلى العبد نص ذلك. شهد عليّ ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي، وحبيب بن أبي عبيدة بن ميسرة الفهري، ++ةابة قائم الهذلي، وكتب في رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على يمينه كان بياض طنجة يشعُّ من بعيد وسط ضباب خفيف، وفي أقصى اليمين وقفت صومعة مسجد محمد الخامس الشامخة كإصبع المتشهد في صلاة خاشعة، وعلى يسارها كانت غابة الرميلات تتشمّس بشعرها الأخضر الكثيف، وقد ارتسمت على ناصيتها شجرة صنوبر رائعة.

- إنها هي، قال في نفسه، لا تخفى وإن خفيت. إنها تينّج tinnji العالية.

تراءت له سفينة نوح والحيوانات على ظهرها تتقافز في فرح، والناس يتعانقون ويتصايحون «طين جا.. طين جا». سمع صوت مواء ونباح وخوار وعواء وثغاء ونقيق وفحيح... تعجب كيف استطاع نوح عليه السلام أن يدبّر هذا الاختلاف بين حيوانات ذات طباع متباينة، ويهذّب نزوعها الغريزيّ نحو البقاء. هل كانت الحيوانات تعي أنّ مصير الكون رهنٌ بتسامحها وتخلّيها عن غرائزها؟ ما أجمل العالم لو كان بنَفس سفينة نوح! ردّد في نفسه.

تخيّل نوحًا يقف بظهره المملح ممسكًا بإحدى الصواري. يضع حافة كفّه فوق ناصيته وهو ينظر إلى الأفق، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة:

«إلهي تحقّق الأمل وصدق الوعد. من توكّل عليك سلم، ومن التجأ إلى بابك غنم. ها هو عالم جديد يولد من تحت أنقاض الطّوفان، فاجعله يا إلهي خيرًا كلّه! واترك هذه السّفينة راسية على ميناء رحمتك ليلجأ إليها عبادك في المحن!».

تراءى له المعبد الذي بناه «أنتي» من جماجم المسافرين، وببابه وقفت زوجته «طنجى» مرعوبة وهي تشاهد المواجهة الدامية بين زوجها «أنتي» وبين «هرقل».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اندفع هرقل بجسده الضخم، وهو يحجب ضوء الشمس بسيفه المرفوع إلى السماء. هوى بكل قوته على «أنتي» وكاد يشطره نصفين لولا حركة هذا الأخير المراوغة، حيث قفز بخفة نحو اليمين، وهو يصوّب رمحه نحو ساق هرقل الضخمة وزوجة أنتي تصيح في رعب:

- لا تقفز أنتي! لا تترك هذه الأرض! فسر قوتك في هذا التراب الهش.

اصطدم السيف بالأرض فانفلقت إلى ضفتين، وسال الماء بينهما أزرق غامقًا، والتقى العاشقان الأطلسي والمتوسط على جمال قد قدر، وتعانقا بعد الفراق الطويل، وتراقصا في حركة لولبية

صعدت بسرعة نحو الشمس لتطفئ وهج الظهيرة، وتغلف المضيق بغلالة ضبابية شفافة. عمّ الغبار المكان، وفقد «أنتي» القدرة على الرؤية، فتخبط في الفراغ، وهو يصيح في غضبٍ:
- أين أنت يا هرقل؟ يا من يريد اغتصاب مملكتي التي بنيتها بجماجم وصبغتها بدماء!
يرفع هرقل السّيف المبلّل بالماء ويعاود الضّربة بحركة نصف دائرية. ينشطر جسم «أنتي» ويسقط جزؤه العلوي أمام «طنجي» وفي عينه اليسرى وميض ألم وفي الأخرى شرارة حب عميق. مدّ «أنتي يده نحو طنجى» طلبًا للنجاة، لكن هرقل عاجله بضربة قاضية. زفر هرقل زفرة عميقة وهو ينزع الرمح الذي غاص في ساقه، فتولدت ريح شرقية قوية، وحمل «طنجى» وهي تتخبط بجنون، وتضرب بقبضتيها ظهره المشقوق، وقد انسدل شعرها إلى بطتي ساقيه، وغاب بها بعيدًا في أعماق المغارة.
تزوجت طنجة بالغريب مكرهةً. كيف كان حفل الزفاف يا ترى؟!.. من حضر من المدعوين؟
ماتت وهي تلد «سوفوكس». تألمت، صرخت، خبطت رأسها مع الأرض وهي تصيح: «أنتيبي».
سمعت صراخ سوفوكس، هدأت قليلًا تُصيخ السّمع إلى لحن الحياة الأبدي، أحسّت بشلالات تجري من تحتها وأنهار تتدفّق بقوة. اختلط صوت الصّراخ بهدير الشلالات وأمواج أشقار، وهي تضرب جدران المغارة. كان الصّوت يبتعد شيئًا فشيئًا. تداخلت ملامح القابلة والخادمات الواقفات بجانبها، ضباب كثيف عمّ المكان، مدت يدها إلى يد أنتي المقطوعة. أمسكت كفّه بقوة، وصاحت في صمت:
- خذني إليك يا شقيق الروح!
كبر سوفوكس واشتد عوده. كان وسيمًا. ورث جمال أمّه وقوّة والده، كما أخبرته بذلك مربيته. كان كلّما نظر في صفحة البئر تذكّرها، فقرر أن يبني «طنجة» تخليدًا لذكراها. كان يتساءل في خلواته، وهو يتأمل الشمس المهاجرة إلى أعماق البحر:
- هل أحبّت طنجة هرقل؟ أم أنا ثمرة نزوة بلا شهوة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رشف من الكأس رشفة طويلة، وتلمظ وهو يستمتع بمذاق قهوة أرابيكا المرّ، نظر مرّة أخرى إلى الأفق الأبيض وأضاف:
هأنذا أعود إليك أيّتها الفاتنة الغادرة! وحيدًا كما خرجت منك وحيدًا. ينتابني الشوق، وتجرفني الذكريات إلى أحضانك. هنا وجودي الأول، بكائي وضحكي، لغتي الأولى، كلماتي الأولى «ماما! بابا! كغ كغ»،هنا حبي الأول.. كيف تحمّلت هذا البعاد، وصبرتِ على فراق بطعم الصبّار؟ لم تسألي عني يومًا موج البحر، ولا همستِ في أذن النجم الشمالي، أين هو يا ترى؟! أم أنك انشغلتِ عني بأولادك الجدد الذين ملؤوا الأزقة والشوارع، وسالوا على جوانبك كدماء القرابين؟ هأنذا أعود لأولد فيك مرة أخرى وأنفض عنك غبار النسيان. انتظريني!
اقتربت الباخرة من ميناء طنجة المتوسط حاملة جيشًا من المهاجرين المغاربة في أوروبا. كان يشعر بدوار خفيف انتابه بسبب حركات السّفينة الضّخمة التي كانت تحاول مسايرة التّيارات القويّة بمضيق جبل طارق، والالتفاف على بعض الأمواج التي فاجأتها في منتصف الطريق. تأمل الميناء الكبير برافعاته الضّخمة وحاوياته المصطفة بعناية على أرضيته الإسفلتية. نظر إلى جبل الدّالية المنعزل كصوفي يتكئ على إحدى ذراعيه في خلوة أبدية. كانت رؤية الجبل شرارة أيقظت فيه ذكريات جميلة قضاها فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان في أيام شبابه يأتي رفقة الأصدقاء للتخييم. أسبوع أو أسبوعان كانا كافيين لنسيان تعب الدّراسة وإرهاق الامتحانات. خيمتان صغيرتان وأسرّة رقيقة وبعض الألحفة وقليل من الأواني الضروريّة، خاصة طاجين الفخّار وقصب الصيد وبعض السردين المجفف. في الصباح يعدّون إبريق شاي وبيضًا مقليًّا وزيتونًا أسود، ثم ينزلون إلى شاطئ «واد الرمل» أو «الدالية»، حيث يقضون سحابة يومهم في السّباحة ولعب كرة القدم، أو في مساعدة الصيادين في إخراج الشباك الضخمة التي تكون قد وضعت في عمق الشاطئ قبيل غروب اليوم السابق، ينقسمون إلى فريقين، ويجر كل منهما حبال الشباك المفتولة بحركات موقعة وهم يرددون:

- «اللهم صل عليك آرسول الله!».

يستمر الجرّ إلى أن يتلاقى الفريقان، فتظهر أسماك «الشرال» بلونها الفضي وهي تتخبط في رقصة النهاية. تُملأ الصّناديق الخشبيّة بالسّمك، ويحمل كلّ من حضر ما استطاع من سمك طريّ يتلوى في المقلاة كأنه جانّ، أو يتفتت مع البصل والزّبيب في «التاكرة». في بعض الأيام، خاصة إذا هبت ريح «الغدايكة» أو شرقي خفيف، ينصرف بعضهم إلى إعداد «البلوطا» و«المراغة» وينزلون إلى حافّة الجبل لاصطياد «الشارغو» والحداد» و«الحرش»، قبيل الغروب يشترون الرّغيف والجبن البلدي من بعض القرويات اللواتي يمررن على الخيام الرابضة في أسفل الجبل، ويبقون إلى وقت متأخر من الليل مجتمعين حول صينية الشاي في سمر جميل يجمع بين النقاشات والغناء وسرد الحكايات والأفلام الجديدة والنكت، أو قراءة بعض القصائد التي يبدعها زميل لهم كان يدرس في ثانوية مولاي رشيد. وفي أحيان قليلة كان يزورهم «الشاف» فيقضون في صحبته أمسية رائعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان «الشاف» أستاذًا للتربية الإسلامية، يدرُس أغلبهم على يديه في ثانويات طنجة. كان يلقب بـ«فان دام» تشبيهًا له بالممثل البلجيكي المعروف. لا تكاد تمرّ سنة دراسية دون أن يدخل في مصارعة مع أحد التلاميذ. ينطحه برأسه، ويكيل له اللّكمات، فيردّ المراهق بعنف. يتدخل التلاميذ لفضّ النّزاع، ويخرج «الشاف» من الفصل بخدوش وكدمات وقميص دون أزرار، وهو يصيح في تهديده المعروف:

- والله تنفخ العينين دباباك!

«الشاف» مجذوب من مجاذيب البحر. تزوج عيشة البحرية التي تعيش مع أولادها التسعة في «سيدي بوقنادل» الرابض تحت حي الحافة. كان يملك ذاكرة كراوية زهير، يحفظ القرآن برقم الآية وصفحتها في المصحف، ويحفظ كتاب «البلاغة الواضحة» عن ظهر قلب. كان تحفة بشرية كـ«حي بن يقظان». يقضي عطلة الصيف كاملة في الدالية عاريًا إلا من سروال قصير وآلة تصوير معلّقة على كتفه. كان محبوبًا، يتهافت الجميع لاستضافته بسبب حلاوة لسانه وطراوة طرائفه التي لا تنتهي. وكان أغلب كلامه اقتباسات من القرآن وعالم التدريس. فإذا أراد أن يستزيد من كأس الشاي يقول: «املأ الفراغ بما يناسب!». وإذا أفضى بسرّ يعقبه بقوله: «امسح السبورة!»، وإذا تأخّر أحدهم عن موعده يستقبله بعبارة: «أحضر ورقة الدّخول!» أما إذا استفزّه أحدهم وسأله عن وقت مغادرته فيجيب بيقين: «إنا ها هنا قاعدون ولو كره الكافرون».

حكى لهم مرة أنه ذهب لخطبة فتاة يتيمة كانت تدرس عنده في الثانوية، وكانت حسب قوله، غاية في الجمال:

++- أ العداو! a best، a nike!

تلكم هي العبارة المحفوظة التي كان يرددها كلما أراد التعبير عن إعجابه بجمال امرأة. عندما سألته والدتها، وهي طنجاوية أصيلة:
- علاش ما جاوشي معك عائلتك؟
أجابها:
- المرّة القادمة إن شاء الله. «لآتينكم بجنود لا قبل لكم بها».
لم تفهم الأم على ما يبدو الإشارة فأضافت:
- وشحال ماشي تعطيها في الصدأ «الصداق».
فرد عليها:
- «بثمن بخس دراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين».
فهمت الأم معنى «دراهم معدودة» فطردته شر طردة:
- بنتي ماشي شايطة نعطيها للحمأ «للأحمق».
كان «الشاف» تحفة الدالية وعاشقها، استمر في التخييم فيها وحيدًا، يتخفى وسط غابتها الكثيفة، حتى بعد أن منعت السلطات التخييم في الشواطئ خلال معركتها مع بعض الجماعات الإسلامية، التي كانت تقيم مخيمات كبيرة هناك. أمّا هم فقد استبدلوا الخيام ببيت جميل في مدشر «الحومة» المطلّ على المضيق في رؤية بانورامية خلابة. ولم يوقفوا هذه العادة الجميلة إلا قبيل هجرته إلى إسبانيا.
كان صديقه مصطفى يردّد دائمًا على مسامعهم، وهم يجلسون على شرفة البيت:
- من لم يخيم في الدالية فقد ضيع نصف عمره، ومن خيّم فيها فقد عاش عمرًا ونصف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكونوا يعرفون كيف تبدأ شرارة النقاش ولا من يبدؤها، بل يجدون أنفسهم فجأة وسط المعمعة. يحتدّ النّقاش حينًا ويخبو أحيانًا أخرى. يتذكرّ أن أحدَّها كانت النقاشات السياسية والدينية.
- لقد انتصر المخزن في النهاية. استطاع استيعاب الجميع.
- ما كان للحزب أن يقف مكتوف الأيدي والدّولة على حافة سكتة قلبية!
- إنقاذ الدولة أو الحزب تلك هي المهمة الصعبة.
- الدولة قد تجد من ينقذها، وهي قادرة دومًا على تجديد نفسها، أما إذا انهار طابق واحد من الحزب، انهارت الطوابق الأخرى بالتّبع.
- الدولة أولى من الحزب. كما أنها عبَّرت عن نيّتها في التغيير الحقيقي.
- تقصد تغيير قواعد اللعبة؟
- لا حكم على النوايا!
- النوايا كانت واضحة. تمييع الحياة السياسية عبر خلق أحزاب إدارية، واللعب على وتر الانشقاقات، وضرب المناضلين بعضهم ببعضٍ، وشراء ولاءات القيادات عبر الإغراءات أو التهديد بالفضيحة. أليست عضوية المكتب التنفيذي هي الطريق الموصل لقشدة المجتمع؟.. اليوم زعيم وغدًا وزير.
- الدولة مثل آلة غسيل محشوة بملابس مزوّرة، تتحلل صباغتها عند أول غسلة، من خالطها انتقلت إليه العدوى.
ضحك الجميع من التشبيه، وانصرف هو إلى ارتشاف كأس الشاي المنعنع ثم أضاف:
- إذن، المشكل في الملابس وليس في آلة الغسيل.
أكدّ عبد الله كلامه:

- آلة الغسيل تعمل بطريقة آلية، لا تتغير أبدًا.
- أن تصف مقابلة كرة قدم من المدرجات ليس هو نفس الأمر عندما تقف وسط الملعب، وأنت تنظر إلى الجماهير المتحمِّسة.. الرؤية تختلف.
- اليوسفي قالها بصراحة في بروكسيل. الحكومة لم تفلح في تحقيق برنامجها بسبب عراقيل أخرى غير العراقيل الإدارية؛ بمعنى أنها لم تتوفر كل الوسائل التي تسمح لها بالعمل.
- كان الآوان قد فات. لقد فشل التناوب الديموقراطي. ظل فقط تناوبًا سياسيًّا، والمشهد السياسي برمته قد خضع لإعادة تدوير، وأغلب المناضلين فضل الانزواء بعيدًا. ينتقد حينًا، ويبلع ريقه بمرارة في أغلب الأحيان.
- أجل! كانت الأحزاب باهتة عندما استلمت الحكومة، أنهكتها سنوات الجمر والرصاص. السلطة نفسها تعجبت من تهافت الكثير من مناضلي الأمس على المناصب والسيارات الفارهة والبدلات التي تحمل ماركات عالمية وحفلات الترف..
كانت تبدو الوجوه منفعلة، وأشعة الضوء المنبعث من القنديل الزيتي المعلق على غصن شجرة فوق رؤوسهم تمامًا، تغشي بعضًا من ملامحهم.
- دليل فساد العمل السياسي هو انصراف أغلب المثقفين عن السياسة.
قال خالد بنغمة يائسة:
- تقصد الجابري والعروي مثلًا؟.. المثقف الحقيقي يفضّل أن يُبقي على مسافة بين الفكر والواقع؛ لأنّ حركة الواقع سريعة، بينما حركة الفكر بطيئة.
- خيرًا فعل الجابري. هو عقل كبير.. لو ظل عالقًا في تفاصيل السّياسة لانطفأت شعلته. أغراه الفكر لأنه رجل فكر، وكان أمله أن يرى بلدًا آخر حداثيًّا وديموقراطيًّا.
- كان يعرف أن الحداثة فعل تاريخي لا يمكنها أن تنطلق من فراغ. لهذا كان يدعو باستمرار إلي البحث عن أصولها في التراث؟
- هل تقصد العقلانية والديمقراطية؟
- أجل! هذا ما قصده الجابري، لا ما قصدته أنا.
سكت قليلًا، ثم أضاف:
- لهذا قسم التراث إلى ثلاثة عقول.
تدخل هو وقال:
- بل إلى أربعة!
بدت علامة التعجب على وجوه الجميع، فأضاف:
- عقل بياني، وعقل برهاني، وعقل عرفاني.. والرابع عقل عبد الله الليّارة!
انفجر الجميع ضاحكين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان عبد الله الليارة طالبًا في كليّة الآداب، شعبة الدراسات الإسلاميّة، وكان خليطًا عجيبًا من المعارف. يقرأ كلَّ ما يقع في يده، لكنه لا يستطيع أن يضبط أيَّ علم. كان متشددًا في مظهره، لا يحلق لحية، ولا يسلم على امرأة، ولا يلبس غير الجلباب المغربي، لكنهً في المقابل كان كثير التردّد على الزوايا، يحفظ أذكارها ويردد أقوال شيوخها. كما كان يقرأ بعض الكتب الفلسفيّة المترجمة، لأنه لن

يتعلم لغة الكفار، كما يدعي. لكن الحقيقة التي يعرفها الجميع هو أن جمجمته لم تكن قادرة قط على استيعاب لغة أجنبية.
حدثهم يومًا أن أمّه سألته عن امتحان مادّة الفرنسيّة، التي كانت إحدى المواد التي يمتحن فيها طلبة شعبة الدراسات الإسلامية في الامتحانات الشفوية بالكلية، فانتبه إلى أنه عاد إلى طنجة وقد نسي أمرها. أخذ الحافلة في حينه، وعاد على أعقابه إلى الكلية في تطوان ليبحث عن الأستاذ الذي لم يره قط.
كان «الليّارة» مُعجبًا بـ «نيتشه». وعندما يُسأل عن ذلك كان يجيب:
- اسمه يشبه لقب جدّي «النشاوي»، كما يعجبني السوبر مان الذي يتحدث عنه، هذا هو الذي سيقهر أمريكا.
يضحكون، ثم يقول خالد:
- نيتشه فيلسوف القوة والعدم.
- لقد كان مُلحدًا، وكان أجرأ الفلاسفة الملاحدة على الإطلاق. لقد رفض فلاسفة الأنوار اللاّهوت المسيحيّ، لكنّهم لم يجرؤُوا على رفض الأخلاق المسيحية؛ كالمحبة ومساعدة الآخرين والشفقة والرحمة، أما هو فقد عاب عليهم ذلك. كان يرى أنّ الأخلاق المعاصرة يجب أن تقوم على القوّة والذّكاء.
يعلّق عبد الله:
- رغم إلحاده، أظن أنه تأثر بقراءاته لتاريخ الأديان وتاريخ الرومان، لم يكن السوبر مان إلا نموذجًا آخر للأنبياء وللأباطرة.
يضحك الجميع مرّة أخرى.
- أو ربما تأثر بـ«داروين»! فإذا كانت الحياة هي بقاء الأصلح، عندئذ تكون القوّة هي الفضيلة الأساسية، والضعف هو النقيصة الوحيدة. لهذا كان يعتقد أن التطور سيفضي إلى ظهور الإنسان الأعلى السوبر ماني.
- أو ربما تأثر بـ«بيسمارك» موحّد ألمانيا. هو من ألهمه هذا السوبر مان. هل تتذكرون قولته الشهيرة: «إنّ لا محبة للغير بين الأمم، وإنّ القضايا الحديثة في الدول لا ينبغي أن تقرّرها أصوات الناخبين ولا بلاغة الخطب، بل يقرّرها الدّم والحديد».
يصيح عبد الله:
- بيسمارك ألهم نيتشه، ونيتشه ألهم هتلر، وهتلر ألهم «حميدو».
يهتفون بصوت واحد:
- شكون حميدو؟!
فيرد عبد الله:
- حميدو جارنا! كل صباح يُقسم أنه سيستأصل شأفة زوجته:
- «ما بقاتشي العَيشَة معاك يا بنت لحرام! واللهْ حَتَّى نقَطّعْ نباباكْ اججذرْ!».
قالها بلهجة جبلية يتقنها، فضحك الجميع مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- الجابري كان بنيويًّا في فكره، وكان مُغرمًا بالتصنيفات. قسم العقل العربي إلى بياني وبرهاني وعرفاني، والعقل السياسي إلى عقيدة وقبيلة وغنيمة، والعقل الأخلاقي إلى طاعة وسعادة ومروءة

وعمل صالح.
- هل تعتقد أن هذا الفصل الحادّ بين العقول وارد في الواقع؟
- أعتقدُ أنَّ التداخلَ والتكاملَ كان سمة عقلنا العربي. تقسيم الجابري إجرائي أكثر منه عملي.
سكت قليلًا ثم أضاف:
- هو مشدود إلى التراث ومُغرم به، رغم موقفه من بعض رموزه. لقد بلع التراث ولم يستطع أن يقيئه.
ضحك الجميع.
- لكن العروي يختلف عن الجابري. هو لا يتصور الحداثة خارج فضائها الذي نشأت فيه. إما أن تؤخذ كلًّا أو تترك كلًّا. لا توجد منطقة وسطى بين الجنة والنار.
- العروي كان مفتونًا بتحوّلات القرن الثامن عشر في أوروبا، عصر الأنوار، عصر القطيعة مع الماضي والعقلانية والحرية والإخاء. لكن المشكل أن المفاهيم لا تنتقل بسهولة، إنها مثل شجرة «الكاكي» تحتاج إلى مناخ مناسب وتربة ملائمة.
- المشكل الحقيقي هو أننا نعيش سلفية في كل المواقف. الإسلاميون يرون أن الخلاص في الماضي الإسلامي المجيد، والحداثيون يرونه في ماضي أوروبا التليد؛ لهذا فشلت كلّ تجارب التحديث عندنا، والناس يتوجسون من مصطلح الحداثة.
- لأنهم يسمعون أن العقلانيّة مضادّة للدّين.
- ليس بالضرورة! لقد مارس علماء المسلمين العقلانية في أبحاثهم العلمية والفلكية والطبية.. ومع ذلك لم ينكروا الدّين. الفرق الوحيد هو أن العالم الحداثي يقول ما أعظم هذا العقل! والعالم المتدين يقول ما أعظم خالق هذا العقل! لكنهما معًا يشتغلان بنفس المنهجية. الأول ينظر إلى الظاهرة والثاني ينظر إلى الآية.
قال عبد الله باندهاش:
- وما الفرق؟
ردَّ عليه:
- عندما تقول «ما أجمل فصل الربيع!» فأنت تعبر عن انفعال نفسي بظاهرة عودة الحياة إلى الطبيعة، لكنك عندما تقول «ما أعظم خالق فصل الربيع!» فأنت تتعامل مع الآية، مع المعنى الثاوي في الظاهرة، حيث تُزيد على الانفعال الأول انفعالًا ثانيًا. فإحساسك بالجمال يكون مضاعفًا، فالدّين يزيدك جمالًا.
- أعتقدُ أنَّ للحداثة روحًا وواقعًا، وروح الحداثة هي الاستمرارية وليست القطيعة. لا شيء يبدأ من فراغ، إنها كحلقات الزمن، نهر متدفق، لكنه ليس كنهر هراقليطس الذي يستحمّ فيه مرّة واحدة، بل نستحم فيه مرّات. لأنّ روح الماء تبقى هي هي، ذرّتين من الهيدروجين وذرّة من الأوكسجين. والجميل هو علاقتهما الرائعة، لقد تزوّجا لتحقيق الحياة.
- أظن الأوكسجين مذكر والهيدروجين مؤنث. قال عبد الله.
انفجروا ضاحكين وقد انتبهوا إلى إشاراته الدالة.
نظر إليه مصطفى، وهو يحرك سبابته:
- عبد الله! عليك أن تتزوج مباشرة بعد الحصول على وظيفة، قبل أن تتحول تركيبة الماء الفيزيائية.

كانت ليالي التخييم كلها تمضي على هذا المنوال. وكانت موضوعات السياسة والفكر والثقافة موضوعات الساعة، لكنّه كان يجد متعة خاصة في استعراض معارفه الفلسفيّة وقدرته على التحليل. كانت الأفكار تشرق في ذهنه كصباح ربيعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حمل حقيبته واجتاز حواجز الجمارك المزدحمة. من حسن حظه أنه أفلت من تفتيش رجال الجمارك الجزافي. خرج إلى باب الميناء. الحركة دؤوبة وزعيق أبواق السيارات، التي تراصت على طول الممر المؤدي إلى شبابيك رجال الأمن، لا يتوقف، وقد امتلأت أسطحها بالدراجات والغسالات وأحواض الماء المستعلمة وأشياء أخرى محشوة تحت غطاء بلاستيكي سميك، وقد غاصت عجلاتها خجلة في الأرض. كان موظفو مؤسسة محمد الخامس للتضامن ورجال الجمارك يملؤون المكان، ويتحركون في كل اتجاه وقد تعرّقت قمصانهم ومالت قبعاتهم، وبدت على وجوههم علامات الإرهاق. تقدم نحوه سائق سيارة أجرة كبيرة:

- على السلامة.. إلى أين إن شاء الله؟

- طنجة!

صاح السائق:

- على بركة الله!

أخذ منه حقيبته ووضعها في صندوق السيارة:

- كم الثمن؟

- ثلاثمائة درهم.

- الثمن غالي بزاف؟

أغلق السائق صندوق السيّارة بقوة، وهو يقول:

- الثمن مناسب جدًّا! هذا أرخص ما يوجد. ننتظر منذ الصباح قدوم السفينة، ولم نستفتح بعد!

فكر قليلًا في الأمر. نظر إلى أمواج البشر خلف الحواجز وسيارات الأجرة البيضاء والزرقاء المكدسة، فلم يجد بدّا من الإذعان.

- لا بأس!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استلقى على الكرسي الخلفي، بينما عاد السائق ينادي على المسافرين المتدفقين عبر البوابة الرئيسية لمحطة المسافرين كحجاج عرفة:

- طنجة طنجة طنجة Tanger، Tanjer، Tangier

بعد قليل، عاد مصحوبًا بأجنبيين يحملان على ظهريهما حقائب ضخمة مشدودة على خصريهما. التمس منه السائق أنْ يجلسَ في المقعد الأمامي، بينما جلس الأجنبيان في المقعد الخلفي.

انطلقت السيارة بسرعة على الطريق السيّار. كانت أصوات الموسيقى الشعبية المنبعثة من الراديو تَصمُّ الآذان، فطلب من السائق أن يخفض الصوت. ضغط على الزرّ وأوقف المذياع.

- من أين؟

- من مدريد.

- كيف تسير الأمور هناك؟

- جيدة.

حك السائق أذنه وأضاف:
- سعداتكم! الله يجيب شي حركة!
لم يردّ.
- المدريد هذه السنة ستأخذ كأس الملك.
- صراحة! لا أتابع مباريات كرة القدم؟
- هل صحيح أنهم سيشترون لاعبًا برازيليًّا في الموسم القادم؟
- والله لا أعرف! قلت لك أنا غير مهتم بكرة القدم.
- يجب أن يفوزوا في مقابلة اليوم ليضمنوا المسافة بينهم وبين برشلونة.
- نتمنى ذلك!
نظر إليه السائق متفحصًا:
- واش تنا مدريدي ولا برصاوي؟
- قلتُ لك أنا لا أتابع الكرة.
- آه!
سكت قليلًا، ثم أضاف:
- عرفتِ ماذا حصل البارحة لسائق تاكسي في طنجة؟
- ماذا؟
- سأحكي لك قصة غريبة، كما رواها لي سي أغزيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال الراوي الطنجي المعروف بـ«أغزيل»: «بينما الشّطبي يسوق سيارته قرب المحطّة، إذ بسيدة تحمل رضيعًا بين يديها وقفّة. فأشارت إليه بالتوقّف، وهي تحنو على صغيرها بغاية التلطّف. قالت له والاضطراب بادٍ على محيّاها، وعقلها مشغول كأنّه لا يحمل همًّا في العالم سواها: أوصلني إلى حي بني مكادة ولا تحمل همًّا للمادّة! فلما أوصلها إلى المكان، وأدّت ما عليها من أثمان، نزلت من السيارة، وتبخرت وسط الزحام كدخان سيجارة». أكمل الشّطبي السير وهو يحمد الله على هذا الخير. فجأة، سمع صراخ طفل، فنظر إلى الخلف، فإذا برضيع كأنه حمل وديع. عاد به إلى المكان وهو يردّد في نفسه، «ليس هذا زمان أمان». لكنه لم يجد للسيدة أثرًا ولم يسمع لها خبرًا. فذهب به إلى مركز الشرطة، وقد تيقن تمام اليقين أنه في ورطة. فقالوا له: احتفظ به إلى يوم الإثنين، وأَكْرِم جيدًا هذا الزّين! حتى يأتي مسؤول الأمن، وينظر في كيف ومتى وأين! فأخذه إلى بيته وقال لزوجه: هذه مصيبة نزلت. امرأة تركتها في السيارة وهربت. فنظرت زوجته إلى الرضيع وقد دخلها الوسواس، واضطربت من ساسها إلى الراس، بل هذه ابنتك أيها اللعين! وتريد أن تقلب لي العين. هي تشبهك تمامًا، ولا فرق بينكما إلا لمامًا، ولكن هيهات هيهات! لن تُخدع بنت «مرشان» في آخر الزمان. فتركها تولول، وقصد بيت والده وهو يحوقل. انتظر الإثنين، فأظهرت التحاليل الحقّ، ورجع الماء إلى الشقّ، فاعتذرت زوجته، وندمت على غلطتها، وألحقت الرضيعة ببيتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان السائق يحرك رأسه باستمرار كبومة وهو يحكي القصة، وينظر إلى المرآة الأمامية وتلك التي على يساره. أعاد تشغيل المذياع وخفض الصوت، وغيّر الإذاعة، وغاص في صمت عميق. كان أثير إذاعة طنجة يذيع أغنية محمد العروسي العميقة:

ركبت على عين زورة
وتشوش خاطري وشحال بكيت
ما بياشي بلادي، بيا غير العازبة لي خليت!
فعلًا لم يعد أحد يفكر في الوطن. العازبة أغلى. تذكر أبياتًا لأحمد مطر:
نحن الوطن
من بعدنا يبقى التراب والعفن.
كان مرهقًا ولا رغبة له في الحديث مع أحد. قال في نفسه: «الشكل أفضل من المحتوى». أغلق تفكيره وأنصت للإيقاع الجبلي المتميز، وقد أدخلته الأغنية في حالة من الاسترخاء. مدّ رأسه على مسند الكرسي. كان ارتجاج أبواب المرسيدس المهترئة وأصوات الريح المنبعثة من الشقوق يشبه سيمفونية «ياناتشيك». شعر بخدر خفيف يعبر جسده. أغمض عينيه ثم فتحهما لتتراءى له مداشر بعيدة؛ «القصر الصغير» و«لشبة» و«عين بيضاء». مرّ التاكسي قريبًا من «عين حمراء» و«سيدي علي بن حرازم». تراءت له على يمينه أسفل الطريق السيّار قرية «ملوسة» الهادئة و«عين سعيد» الوادعة، وعلى يساره كانت تبدو قريتي «اغزيلش» و«لانجرييش» كماء تجمد في نهر بارد، وفي قمة الجبل على يساره، كانت تطل بعض بيوتات قرية «الزميج» بلونها الأبيض الناصع. أغمض عينيه مرة أخرى، وقد جرفته الذكريات إلى طفولته الجميلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلق بوق السيّارة في الخارج فتحرك الجميع.
- لقد وصل عمكم يا أولاد!
- هيا احملوا الأمتعة! وإياكم أن تنسوا شيئًا!
انطلق الجميع في هرج ومرج، واندفعوا نحو سيارة فورد المهترئة بكراسيها الخشبية المهزوزة. جلس والده إلى جانب عمّه في المقدمة، بينما انحشر هو وأخوه حسن وأخته الصغيرة ندى وأمه «لارحمة» وابن عمه وبنات عمه الثلاث وأمهم «لاالسعدية» في الخلف، واضعين القُفف والصّرر بين أقدامهم. انطلقت السيّارة في اتجاه طريق تطوان، ثم انعرجت عند مدار الطايفي، مرورًا بقرية الرمان في اتجاه قرية الزميج، حيث منزل جده وجدته لأبيه.
كان أهل الزميج وأنجرة عمومًا يجمعون بين الطيبة والنخوة. تُرى في أعينهم دائمًا مسحة من حزن. سيتساءل لاحقًا عندما سيكبر: هل للمسألة تعلّق بتاريخ القوم؟ هل كان رحيلهم عن الأندلس مأساة علمتهم أن الحياة أجمل من أن تُقضى في الأحقاد والضغائن؟ هل للأمر علاقة بجغرافية المكان؟ هل للفضاء دور في تمثيل العالم في ثقافة جبالة؟ هل يرى سكان الجبال العالم كما يراه سكان السّفوح والسّهول؟ يا سيمياء الكون أجيبيني!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال المؤرخ الجبلي المعروف بـ«العفاقي»: «لقد عرفت قبيلة أنجرة هجرتين أندلسيتين مهمتين: الأولى هي الهجرة الإشبيلية في أواسط القرن السابع الهجري، والثانية جاءت بُعيد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ه، تلاهما ورود موجات من المورسكيين إلى المنطقة. إن طرائق عيش الإشبيليين والغرناطيين متجلية بشكل مثير في هذه القبيلة. ومما يلفت الناظر إلى خريطة المنطقة أن أغلب أسماء القرى والبلدات الأنجرية، يوجد لها نظائر في الأندلس، لا سيما في مملكة غرناطة، من ذلك: الحمّة والزاوية والملاح والخوايم والمنصورة والقلعة والحومة والخندق والرملة والرميلات

والقصيبة والشطيبة «والنسبة إليها الشطبي، وهي تصغير شاطبة»، والدالية والزهارة.. بل إن اسم أنجرة نجد له نظيرًا في الأندلس، وهي بلدة الأنجرون من بشرّة غرناطة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان بيت جده، على غرار بيوتات أنجرة، مبنيًّا بالطوب والحجر ومسقوفًا بالقرميد الأحمر، ربما لأنَّ أجدادهم جاؤوا من مناطق أندلسيّة كانت تكثر فيها تساقطات الثلوج. جدرانه مُجيّرة بالأبيض في جزئها العلوي وبالأزرق في جزئها السفلي. هل كان الأزرق عنوانًا على المشترك والتشابه بين أهل القرية؟ هل كان حنينًا للبحر الذي عبروه فرارًا من الفردوس، حيث تركوا منازلهم وبساتينهم، أم إن هذا اللون البارد هو رمز للسماء التي يرفعون أعينهم إليها كلَّ يوم، وللماء النازل من الجبال كقدر جميل؟ لا أحد يدري!

كان البيت مكونًا من خمس غرف؛ واحدة لجدّه وجدّته، والثانية لعمّاته، والثالثة لوالده وعمّه، والرابعة للضيوف، والخامسة بيت المرمة، وبه آلة لحياكة المناديل والجلابيب وبعض معدات الخياطة والطرز، بالإضافة إلى مقعد ودويرة تتوسطها شجرة التّين. في إحدى الزوايا، وضعت أعمدة خشبية تسلقت فوقها أغصان دالية تتدلى منها في فصل الصيف عناقيد العنب الأخضر كثريات رومانية. وفي الزاوية الأخرى يظهر باب الميضأة الخشبي المطلي بالأزرق. وقد أحيطت الدويرة بأصص الورود ومشاتل الأزهار من قرنفل ومرددوش وحبق وياسمين وعطرشة وأزير.. كما أحيطت الدار من الخارج بأصص مماثلة. وعلى مقربة من الدويرة يوجد الفرن الطيني «الكانون»، وفي الجهة المقابلة نوّالة مصنوعة من جذوع الأشجار تأوي إليها الماعز في المساء، فيتسابقون إلى الهشّ عليها وهي تتقافز في رشاقة، وإلى جانبه خمّ دجاج وقد انتشرت حوله دجاجات وكتاكيت تنقر بمناقيرها في خشاش الأرض، وديكة مزهوة تلفظ بحبوب القمح أمام الدجاجات، وتدفع صدرها إلى الإمام، وتخبط بجناحيها خبطات سريعة، ثم تطلق صرخات عميقة وقد مدت أعناقها إلى الإمام وانفتحت مناقيرها وانفلت لسانها إلى الخارج «كوكووووعووو»، ثم تصمت في كبرياء وكأنّ العالم كلّه قد أصغى إلى أذانها.

كانوا يأتون إلى هنا كلّ صيف لقضاء العطلة. أيام جميلة يُمضونها بين مطاردة الكلاب والقطط، وركوب الحمير وتسلق الأشجار، والبحث عن أعشاش الطيور وجمع البيض وقلع الجمار وجني ثمار التين؛ خاصة الباكور المعسل، وسقي الماء من العين، أو مرافقة جدّهم إلى «الجنان» لجني الغلة من برقوق ولنجاص ومشمش ونيش وتفاح بلدي، أو مصاحبته إلى النوادر لدَرس المحصول، وفصل حبات القمح عن التبن وجمعها في شكائر من الكتان...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان جده رجلًا نحيفًا لكنه صلب العود، وله قدرة عجيبة على التحمّل رغم سنه التي جاوزت السبعين. كانت كفّه قويّة لدرجة أن أباه وعمّه كانا يصرخان إذا ضغط بقوة على كفيهما، كما كان يعتاد طقطقة رؤوس أحفاده بعظم إبهامه، فيصرخون من الألم، ويثير ذلك موجة من الضحك بين أهل الدار. كان يستيقظ قبل صلاة الفجر بساعة تقريبًا، ولم يكن أحد يعرف ماذا كان يفعل، حتى تُسمع همهمات الصلاة وطقطقات السُبحة التي يعلّقها دائمًا على عنقه. بعد ذلك ينزل إلى الحقل للتصييف والحصاد. كانوا يزورونه أحيانًا فيجدونه مُنحنيًا، وهو يهوي بمنجله الحادّ على سيقان السنابل، وقد جمع قندورته بحزام جلدي يشبه أحزمة المخازنية، ووضع شاشية من العزف تقيه حر شمس الصّيف الحارقة.

لم يكن جده قد زار طبيبًا من قبل، فإذا مرض استعان بالأعشاب الطبية؛ فالزّعتر لعلاج الغازات وآلام البطن، وزيت الزيتون لعلاج الإسهال والإمساك، وخلّ التفاح لنزلات البرد أو ارتفاع الحرارة، ونبتة «ترهيل» لعلاج الجروح، وزيت الترياق لإبطال سموم الأفاعي والعقارب وعلاج الجروح الناتجة عن آلات صدئة.
كانت قوته البدنية حديث المدشر. وكان أبوه يحكي لهم عنه قصصًا مشوقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في يوم من الأيام مات حمار جدّكم الذي قضى معه سنوات طويلة. بكى جدّكم بكاء من يفقد عزيزًا، وبقي لأيام طويلة دون حمار، لأنه لم يكن يقدر على رؤية آخر في البيت، لكنه اضطر في النهاية إلى اقتنائه لنقل البضائع إلى سوق الخميس وملوسة وطنجة، فنزل إلى سوق «الخميس» واشترى واحدًا. لكن هذا الحمار كان عنيدًا ولئيمًا، بحيث إذا سار على طريق معبدة تظاهر بالبلادة، أما إذا اقترب من منحدر، فقد توازنه وأسقط كل ما يحمل فوق ظهره من سلع، ولم يسلم جدكم من مَكره.
كان يظن في البداية أن الأمر يتعلق بعثراتٍ طبيعية، لكن عندما تكرر الأمر أيقن أنّ الحمار يتعمّد ذلك، فأقسم على الانتقام منه، فجاء به إلى شجرة التّين الموجودة أمام البيت، وربط رجليه وجرّ الحبل حتى ارتفع جسد الحمار عن الأرض وسبح في الهواء. أخذ قضيب زيتون، وأشبعه ضربًا والحمار يتلوى وينهق، وجدكم يصيح:
- والله يابابا‌ك حتى نعلمك تمشي فوق السّلك!
ثم أطلق الحبل، فهوى الحمار على الأرض كصخرة صماء. منذ ذلك اليوم صار الحمار مخلوقًا وديعًا. كان كلّما مرّ قُرب المنحدر الخطير أبطأ الخطو كأنه يمشي على البيض، وحرّك رأسه وتجمعت دمعة في حدقته وهو يتذكّر زردة العصا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المساء كان مشهد عودة الماعز والخرفان يثير فيهم فرحة عارمة، فيتسابقون للهشّ عليها وإدخالها إلى النوّالة وتقديم سطول الماء لإرواء عطشها. أما الليل في قرية الزميج، فكان خاتمة المشهد الملائكي. كان أشبه بليالي ألف ليلة وليلة. ولم يكن شهريار غيره هو وإخوته وأبناء عمه، ولم تكن شهر زاد الحكاية غير جدته «يما رحمة».
لم تكن «يما رحمة» أنانية تريد إنقاذ بنات جنسها فقط، بل كانت، من حيث لا تدري، تريد إنقاذ ذاكرة جبالة وذاكرة الإنسان قبل أن يعريه الطمع، وهي تدغدغ مخيلاتهم الجامحة بقصص تحكيها قبل نومهم، وقد مدّ أغلبهم رأسه فوق فخذيها، وهي تداعب شعورهم ومشاعرهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يا ما كان في قيم الزمان: واحد المعيزة كانت ماشا للسوق، وصّت أبجوان ديالها:
- لا تفتحوا الباب لأحد حتى أرجع!
وعندما غابت الأم، جاء الذيب وصاح بصوت أجش غليظ:
- أنا يمّاكم. افتحوا الباب!
صاح الصغار:
- أنت لست يمّانا! صوتك غليظ ويمّانا صوتها رقيق.

ذهب الذيب إلى البقال وشرب ماءً مُحلى بالعسل، وعاد مرة أخرى وطرق الباب وصاح بصوت رقيق:
- افتحوا الباب أنا يمّاكم!
قال الصغار:
- أدخل يدك من تحت الباب لنتأكد!
أدخل الذّيب يده السوداء كالليل.
أنت لست يمّانا! يدك كحلاء، ويمّانا يدها بيضاء مثل الحليب.
عاد الذّيب إلى البقّال وأدخل يده في كيس الطّحين، وعاد مرة أخرى وطرق الباب وصاح بصوته الرقيق، وأدخل يده تحت الباب.
- افتحوا الباب يا صغار! أنا يماكم جئتكم بالسقاطة والحلوى اللذيذة!
قفز الصغار فرحًا وفتحوا الباب. دخل الذّيب وأكل الصغار إلا معيزو. كان قد اختبأ وسط ساعة حائطية ضخمة.
عادت الأم فأخبرها معيزو بالأمر. لم تجزع الأم، كانت قوية. قالت له: ابحث عن إبرة وخيط واتبعني إلى الغابة! لم يبتعدا كثيرًا حتى وجدا الذّيب يغطّ في نوم عميق وبطنه منتفخة. شقت الأم بطنه بسكين، وأخرجت الصغار، ووضعت مكانهم حجارة كبيرة، وخاطت البطن بالإبرة.
اختبأت الأم وصغارها خلف الأشجار. استيقظ الذّيب وذهب ليشرب من النهر. سقط في النهر وجرفه الواد إلى مكان بعيد.
عندما تنهي الجدّة الحكاية يكون الجميع قد غرق في نوم عميق. أحيانًا كان يرى أحلامًا غريبة. هو ومعيزو يلعب مع إخوته الصغار وهم يضحكون على الذيب ويقلدون مشيته المفككة، وهم يغنّون:
- آ الديب بو دربالة، باركا من البسالة!
آ الذيب ياالكذاب! والله ما نفتح الباب!
أحيانًا أخرى كان يرى الذّيب يطارده وقد اندلقت أمعاؤه، وتطاير الشرر من عينيه، وسال اللعاب من طرفي فمه، وهو يدخل يده في تجويف بطنه الفارغ ويخرج حجرًا ضخمًا يرميه به، بينما هو لا يقوى على الحركة، أقدامه لاصقة بالأرض ويداه تخبطان في الهواء وموجة زرقاء تفتح ذراعيها وتناديه من بعيد:
- أجي آ الحبيب ديالي! تعال! لا تخف!
يستيقظ فزعًا والعرق يتصبب من جسده. يتنهّد بعنف، ويحمد الله لأنه كان مجرد كابوس. يمدّ رأسه على الوسادة مرّة أخرى ويسترجع المشهد الحلمي الأخير. موجة زرقاء تفتح ذراعيها وتناديه من بعيد:
- أجي آ الحبيب ديالي! تعال! لا تخف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الزمن يتوقف وتتشابه أيام الله، باستثناء يوم الإثنين الذي كان أبوه وعمه يذهبان فيه إلى سوق «اثنين ملوسة»، أو يوم الخميس عندما يذهبان إلى سوق «خميس أنجرة» لاقتناء الضروريات التي تسدُّ حاجة العائلة من خضر وزيت وسكر وشاي وصابون وفتائل القناديل ودواء البعوض.. كان في بعض الأيام يرافقهم في الرحلة، فتمضي السيارة، وهي تحمل ما استطاعت من السواقة الذين ينتشرون على قارعة الطريق. بعضهم يسير على الأقدام، والبعض الآخر يركب الحمير والبغال.

الرجال بجلابيبهم الصوفية البنية القصيرة، وقد غطوا رؤوسهم بقَبّ الجلاب أو بالشاشيات المصنوعة من العزف، وانتعلوا البلغ الصفراء التي انطفأ فاقع لونها فصارت بلون الزبيب، والنساء بمناديلهن الحمراء المخططة بالأبيض وقد التحفن بالفوطات البيضاء الناصعة التي تخطف العين، ووضعن على رؤوسهن شاشيات ضخمة رصعت بنوارات صوفية زرقاء وسوداء، وشدّت تحت أذقانهن بخيط صوفي مفتول.

تمرّ السيارة على مدشر حلاليت ومدشر تافزا، ومن بعيد تبدو مداشر أخرى كدودة قز. أحيانًا قليلة كانوا يتوجهون إلى سوق «ثلاثاء تغرامت» وسط الجبال الرطبة.

كما كان يوم الجمعة متميزًا. فبعد الاغتسال، يلبس جدّه جلبابًا بنيًّا صوفيًّا، ويعصّب جبهته بعمامة صفراء شرقاوية، وينتعل البلغة الصفراء، ويعلق سبحة على صدره، بينما كان أبوه وعمّه يلبسان الجلابيب والطرابيش البيضاء اللون، ويتوجهون جميعًا إلى زيارة ضريح سيدي أحمد بنعجيبة قبل التوجه إلى المسجد لصلاة الجمعة، ثم يعودون إلى البيت وقد فُرشت الحصر في الدويرة، ووضعت على الأرض قصعتان من الكسكس بالخضر والدجاج البلدي، أُحيطتا معًا بالملاعق الخشبية وأكواب اللبن الرائب. يتحلّقون حول القصعة، وهم يجرفون الطعام بملاعقهم أو يغرسونها في الخضر المسلوقة، في حين كان جدهم يكوّر الكسكس في يده ويرمي بها في حلقه وهو يحكي عن قصصه ومغامراته التي لا تنتهي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصلنا إلى مشارف «سوق الخميس» في صبيحة يوم صحو، قبل أن نسمع أزيز طائرات السبانيول قادمة من جهة جبل تغرامت. اختبأنا أنا وعمكم مصطفى رحمه الله تحت شجرة تين، بينما كانت تصلنا أصوات الانفجارات والتطرطيق. مرّت الطائرات فوق رؤوسنا، فخرج أولاد بولعيشيش من مخابئهم وبدؤوا يمطرونها بالرصاص. اختفت الطائرات، فأكملنا الطريق إلى السوق. كان جزؤه الكبير قد اختلطت فيه أشلاء البشر وأمعاء الحيوانات ببقايا الخضراوات والكرموس والهندي والبيض والجبن البلدي. اختلط البكاء بالعويل والصراخ بالجراح. جاء رجال يغطون وجوههم بالألثمة، وطالبونا بوضع فصوص الثوم في مناخرنا، وإغلاق أفواهنا حتى لا يتسرب غاز الخردل السام إلى أجسادنا. انهمكنا جميعًا في حفر القبور الجماعية ودفن الشهداء. ألقينا حوالي خمسين جثّة في حفرة كبيرة، ورددنا عليها التراب، بينما حُمل الجرحى فوق البغال إلى المنازل القريبة من السّوق للعلاج. وأيّ علاج؟ لا شيء تقريبًا غير أعشاب «ترهيل» لإيقاف النزيف.

ما كدنا ننتهي حتى جاءنا رجل وهو يصرخ:

- لقد ضربوا المسيد في الحمّة.

امتطينا ما وجدناه من حمير وبغال وانطلقنا إلى القرية. كانت النساء تولول وشيخ يصيح:

- ++عشرين دالمحاضرة كانوا ليحفظوا القرآن، كلهم اندفنوا هنا!

أزلنا الطوب والتراب فكان المشهد مروِّعا. قطع لحم متناثرة وبقايا عظام مهروسة وأمعاء مختلطة بالتراب. فرشنا حصيرة على الأرض وبدأنا نلتقط الأشلاء ونضعها فوقها، ثم غطيناها بأوراق الرند ودفناها في حفرة وسط المدشر.

عندما انتهينا من الدفن جاءنا صوت «أحمد البياع» وهو يتظاهر بالجزع ويصرخ:

- هاد سبانيول ماشي يترّكونا إذا بقاو الناس ليضربوا عليهم القرطاس. مساخيط عاندهم السلاح وحنا غا دراوش.

لم يتمالك أب أحد الفتية الذين قضوا في القصف نفسه، فأخرج خماسيته وأفرغها في رأسه، وهو يصيح:
- حنا غا دراويش يا البياع يا ولد الحرام!
حمل بعض الرجال جثة «البياع» ورموا بها في قاع واد عميق، بعد أن غسلوه بالبصاق وكفنوه بالركل.
عدنا في المساء وقد أخذ منا الجهد كل مأخذ، فنمت نومة عميقة ولم أستيقظ إلا على صراخ عمّكم وقد انقبض نفَسه. كان يمسك بإطار الباب، ويقف على بنانه وهو يسحب الهواء إلى رئته بكل قوته. فجأة سقط على الأرض، وبدأ يتلوى ويسعل بشدّة، ثم سكت نفَسه والعرق يتصبّب بغزارة من جسده. ظننّاه في البداية قد تجاوز الأزمة، لكن الرّوح كانت قد تسللت في غفلة من الجميع. مات عمّكم رحمه الله بغاز الخردل السبانيولي الغادر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حدث صغير ربما سيبقى عالقًا في ذاكرته إلى الأبد. كان الجميع يغطّ في نوم عميق عندما شقّ صراخ قويّ سكون الليل. فزع الجميع وهرعوا إلى مصدر الصّوت. كانت زوجة عمهم واقفة أمام باب الغرفة التي تنام فيها أمه وهي تصرخ:
- خَرجوا العيال! خَرجوا العيال!
جاء والده وجدّه وأخرجوهم إلى الدويرة. صاح الوالد:
- مامّاكم كتولد، غادي تجيبنا الوليد!
استمر صراخ الوالدة لساعات، يخفت حينا فيُسمع أنين متقطّع كحركة ماء في بئر عميق، ويشتدُّ حينًا آخر فتجحظ أعين الجميع، ويبكي الصّغار فينهرهم الجد:
- اسكت آ القرّان!
الوالد في حركة ذهاب وإياب وهو يتمتم بدعوات خافتة، ويقرأ بعضًا من الأدعية:
- يا لطيف م يزل! الطف بنا فيما نزل!
تصمت الأم ويعلو صراخ رضيع. تُسمع زغرودة عميقة من خلف الجدران. ينهار الوالد على ركبتيه ويسجد في خشوع، ثم يقوم بسرعة ويختفي وسط الغرفة. تخرج زوجة عمّه بإناءٍ مملوءٍ بالماء وتفرغه في الميضأة، ثم تعود مرة أخرى وهي تحمل لِحافًا مُلطخًا بالدم وتضعه في سطل أسود. تنادي عليهم، يدخلون إلى الغرفة. الوالد يمسح بكفه العرق الراشح من جبهة الوالدة التي تغمض عينيها في سلام ملائكي، جدته تحمل خرقة بيضاء ناصعة وقد تكومت داخلها قطعة لحم حمراء بالكاد تفتح عينيها، وهي تُصدر أصواتًا متقطعة «آه آه». تنادي الجدة:
- آجو آ العيال تشوفو ختكم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يُعْلنُ النفير العام في البيت استعدادًا لحفل العقيقة. تُطلق الزغاريد بدون استئذان، يمتلئ بالمهنئات طيلة أسبوع كامل، تُصنع حلوى الطحين و«الغريبة» و«المراشم»، وتُعجن «الفقاقص» والخبز. تضع عمته الدقيق في القصعة، وتضيف إليه الماء بين الفينة والأخرى، وهي تدعك العجين بيديها القويتين، ثم تقسمه إلى قرصات صغيرة، تطحطحها بكفيها الواسعتين، وتضعها على لوح خشبي حتى تختمر، ثم تلقي بها جدّته في الكانون.

في اليوم السابع يَذبحُ الجدّ خروفًا سمينًا. يمسك الأب والعمّ الخروف جيدًا بعد أن يسقطوه أرضًا. يصيح الجدُّ:
- اقطع الدم جيدًا!.. بسم الله والله أكبر هذه عقيقة ندى.
يغسل عنق الخروف بالماء، ويُنفخ ويُعلّق على غصن شجرة التين، ثم يُسلخ؛ مرّة بالسكين الحادّ، ومرة أخرى بإعمال قبضة اليد والإبهام، فتنزلق الجلدة بسرعة كانهيار بيت من وسائد.
تُفرش دويرة الدار والساحة الخارجية، وتلبس أمه القفطان الأبيض و«الزكدون»، وتحيط خصرها بمجدول مذهب، وتَعْصبُ جبينها بسبنية قطنية بيضاء. جدته هي أيضًا تلبس القفطان، وتقف أمام الباب لاستقبال المدعوات وإدخالهن بالتناوب إلى الغرفة التي تجلس فيها أمه والمولودة الجديدة:
- على السلامة ديالك آبنتي! والله يبارك لك فهاد البنيتة!
- تبارك الله لتشبه نباباها!
- لواه آخلتي خدوج! هي غا يمّاها منزلة!
- العيال ليتبدلوا مع الوقت، هايدا كانت سعيدة ديالي، نهار دخلقت تقول غا باباها، ودابا لتشباهلي.
النساء في الدويرة يرددن الأمداح النبوية بمقامات جميلة متميزة:
الحرم يا رسول الله
الحرم يا حبيب الله
الحرم جيت عندك قاصد
سيدي ويا رسول الله
ويتخلل المديح زغاريد تملأ الجو فرحةً وحبورًا، والطلبة في الخارج يقرؤون القرآن ويرددون الأمداح النبوية:
يا عين الرحمة محمد
يا عين الرحمة محمد
يا عين الرحمة محمد
صلى الله عليك وسلم
توزع كؤوس الشاي والحلويات على كل من حضر من أهل القرية، ثم يجلسون فوق الحُصر. يدور عمه بإبريق ماء وصابون، فتغسل الأيدي وتنشف بمنشفة تتنقل بين الحاضرين، وتوزع قطع الخبز المعجونة بالقمح الخالص، ثم تُوضع الصحون المملوءة باللحم والبرقوق. يأكل الناس بشهية، وتلعق الأصابع بنهَم. تجمع الصحون والكؤوس، ويعيد عمّه عملية غسل الأيدي، ويعود كلٌ إلى مكانه، فتُرفع الأيدي بالأدعية، ويردّد الفقيه: «اللهم اجعلها ذرية صالحة! الله يخلف على مواليّ الدار! كما أكرمونا الله يكرمهم».
ينصرف الحضور ويجتمع أهل الدار في الدويرة:
- الحمد لله كل شي سهل الله فيه!
- الحمد لله كل شي كلا وشرب.
- الناس مشاو فرحانين.
- اوا الله لا يحشمنا!
أما الحدث المهم الذي كان يغير من إيقاع الحياة في قرية الزمّيج، فهو موسم الولي الصالح سيدي أحمد بنعجيبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظ باكرًا على ضجيج حركة غير عادية عمّت البيت. صوت الصحون والأواني وقرقعات الكؤوس على الصينيات. جاءت أخته وابنة عمه تطالبهم بالخروج من غرفتهم لتنظيفها وفتح نوافذها وتغيير اللّحافات.

- نوضو آ العيال! اليوم ماجين عندنا الضياف!

يُعرف أن الكثير من الضيوف من مختلف المناطق يزورونهم في البيت قبل بدء احتفاليات موسم الولي الصالح. يتناول فطوره بسرعة رفقة أبناء عمه، ثم يخرجون إلى السّاحة الكبيرة المحاذية للضّريح. تبدو الحركة في الخارج أكثر حدّة من هرج البيت. العشرات من الشباب والشيوخ يكنسون الساحة بالشطابات المصنوعة من أغصان الأشجار اليابسة، ويرشون المياه. بينما ينصرف الآخرون إلى تجيير الضّريح ووضع فرش الحصير، ورفع الأعلام مختلفة الألوان، وتعليق القناديل في أرجائها، وإحراق الندّ والبخور في أرجاء الضّريح، وجلب أغصان الرّند ذات الرائحة الزكية من الغابة القريبة ووضعها على جنبات الساحة ووسط الضريح. وبينما ينصرف الجزارون إلى ذبح الثيران السمينة، تستعد الطباخات وقد وضعت طنجرات معدنية ضخمة على مجامير حشيت بقطع الفحم، حيث تظل رائحة البصل والزبيب تعبق القرية طوال اليوم.

وعلى طرفي الطريق يقيم التّجار محلات صغيرة لبيع الملابس والحلويات والحلي والسبحات والأكلات الخفيفة.

يزورهم أناس من مناطق متعددة من المغرب. وكان أحدهم يأتي من فاس، يناديه أبوه بـ»سيدي الحاج». كان رجلًا سمينًا أبيض الوجه مشربًّا بحُمرة، يلبس جلبابًا أبيض ويشعُّ من وجهه نورٌ غريبٌ. كان يتملى في طلعته وهو يحدثهم عن سيرة الإمام أحمد بنعجيبة، والجميع ينصتون في خشوع وأدب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وُلِد -رحمه- الله في مدشر أعجيبش، وبها حفظ القرآن على يد جده، وواظب في اجتهاده، ثم انتقل إلى تطوان التي كانت مجمَع الخلاّن ومؤنس اللّهفان وموطن العرفان، فأخذ العلم عن مشايخها ولازم مناراتها، كالشيخين أحمد الرشا وعبد الكريم بن قريش، ثم رحل إلى فاس أرض العلوم ومنبع الأنفاس التي قيل فيها:

يا أرض فاس التي كملت
ما زال جنبك بالأفضال ممطورا

فدرس على يد الشيخين التاودي بن سودة ومحمد بنيس، ثم عاد إلى تطوان واشتغل بالتّدريس. وفي إحدى رحلاته إلى فاس، التقى في الطريق بالشيخ محمد البوزيدي فأخذه إلى الشيخ الدرقاوي، ثم لازم سيدي أحمد الشيخ البوزيدي، وأخذ عنه علوم القوم وآداب الصوفي، فلبس المرقّع وعلّق السبحة على عادة أصحاب الطريقة الدرقاوية، ثم عاد إلى تطوان لنشر العلم والحقيقة المحمدية، لكنه وجد من يتربص به من أصحاب المناصب والكراسي، ويُضمر له الضَّغينة الظاهرة والخفية، فجمع أولاده وهاجر إلى قرية الزمّيج، حيث بساطة الخَلق وحُسن الخُلق ورَوْحُ الأريج. ويقال إنه توفي بالطاعون في بيت شيخه البوزيدي في غمارة، ثم نُقِل جثمانه إلى بلاد أنجرة، موطن العلماء وأصحاب الشهود والشهادة. وقد ألف -رحمه الله- ما يزيد على أربعين مُؤلفًا كـ«البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» و«إيقاظ الهمم في شرح الحكم»، و«شرح الآجرومية بالإشارة»، و«شرح همزية البوصيري

وبُردته»، و«شرح المنفرجة لابن النحوي» وشرح «نونية الششتري».. ومن أقواله المشهورة -رضي الله عنه-: «شدّوا أيديكم على الشريعة المحمدية، فإنها مفتاح لباب الطريقة والحقيقة، فكل من ترك منها شيئًا طُرد وأُبعد، ولو كان واصلًا، فالأبواب كلها مسدودة إلا من أتى باب الشريعة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحضرة هي شهود مخصوص. فالعبد ما دام يشهد أنه بين يدي الله والحق تعالى يراه فهو في حضرته، فإن حُجب عن الشهود فقد خرج من الحضرة ولو كان في جوف الكعبة.

الإمام عبد الوهاب الشعراني

بعد صلاة العصر جماعة وسط الساحة، يتحلّق الجميع في ساحة صغيرة، وتبدأ فرقة السماع في ترديد مجموعة من الأذكار. تبدأ الحضرة بإيقاع بطيء. تتشابك الأيدي وتتمايل الأجساد إلى الأمام ثم تعود إلى الخلف تحت ضربات الطبول، ويتسارع الإيقاع فتقفز الأجساد إلى أعلى. العيون مغمضة وحالة الانتشاء والغيبوبة تعمّ الجميع. تنطلق صرخات من هنا وهناك:

- هو هو

- آ الحبيب آ رسول الله!

- يا مولاي!

وتعلو أصوات المستمعين:

الساكن وسط قلبي

حبه يا كرام

حبك يا محمد!

حرمني المنام

حرمني منامي

ودمعي يسيل

وشوقي دعاني

وجسمي نحيل

داوي القلب يبرا

لأنه عليل

داوي القلب يبرا

يا خير الأنام!

حبك يا محمد!

حرمني المنام

تستمر الحضرة إلى حدود المغرب. وبعد الصلاة وشرب كؤوس من الشاي المنعنع، تُلقى بعض الخُطب المعرِّفة بفضل الشيخ سيدي أحمد بنعجيبة وعلومه وتآليفه، وتقام صلاة العشاء ثم تُنشر أغطية على الأرض وتُوضع أطباق الكسكس باللحم والبصل والزبيب، ويأكل فقراء الطريقة والزوّار وعابرو السّبيل. ثم يبدأ الشّوط الثاني من الحضرة. تنتقل الجموع إلى السّاحة الكبيرة ويتحلّقون وتتشابك الأيدي مرة أخرى، وتصدح حناجر المستمعين بأمداح نبويّة وأذكار صوفية.

سلبت ليلى مني العقل

قلت يا ليلى ارحمي القتلى!

حبّها مكنون في الحشا مخزون
أيّها المفتون عم بها ذُلا!
وتستمر الحضرة بين إيقاع بطيء حينًا وسريع حينًا آخر، فتُرفع الأيدي وتُضرب بها الأفخاذ ضربًا خفيفًا، أو تُحرك كجناحي طائر، ومقدم الحضرة يعيد ترتيبها، ويُقوّم اعوجاجها وهو يقفز من مكان إلى آخر بخفة عجيبة. يستمر الإنشاد تحت بدرٍ مضيء مُموِّج بصُفرة، ونسمة منعشة خفيفة تأتي من جهة البحر:
يا سعدا قوم بالله فازوا
ولم يروا في الورى سواه
قرّبهم منه واجتباهم
فنزّهوا الفكر في علاه
ليس لهم للسّوى التفات
كيف وقد شاهدوا سناه
أزال حُجب الغطاء عنهم
فاستنشقوا نفحة هواه
تجلى بالنّور والبهاء لهم
فقالوا يا هو! لبيك يا هو!
فقال أنا لكم محب
رب كريم نعم الإله
لكن هيجانًا كان يعم الحضرة عندما يُنشد المسمّعون:
قلت لهم ندخل حماكم
يا أهل الموالي
قالوا لي تقبل شرطنا
والشرط غالي
تصبر على هاد الحالة
سبعون ليلة
مدامك يا شيخ الحضرة
مدام عجيب
والخمرة شربها الحلاج
وسيدي الرفاعي
كان وابن عمّه يدخلان الحضرة أحيانًا ويقلدان الكبار في حركاتهم، لكن سرعان ما يصابان بالتعب، فينصرفان إلى التجوّل بين الدكاكين الصغيرة على جنبات الطريق، والتأمل في وجوه الجبليات الصغيرات، ذوات الخدود الموردة كتفاح جنان جدّهم، وهن يتجولن بحشمة ودهشة رفقة أمهاتهن. لكن هذه الليالي ستترك أثرًا عميقًا في وجدانه رغم تقلباته الفكرية الكثيرة. تنتهي الليلة بعد صلاة الفجر ويدخل الجميع منهكين إلى البيت ويغطون في نومٍ عميقٍ.
∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصلت سيارة الأجرة إلى مشارف طنجة. في «عين مشلاوة» بدأت ملامح المدينة الجديدة تظهر. شوارع واسعة صُفِت على جنباتها فوانيس أنيقة، والعشب الأخضر يشعُّ على جانبي الطريق. أحسُّ بفرحة طفولية. أنزل زجاج النافذة قليلًا فتسرب ريح خفيف داعب خصلات شعره الأسود الكثيف. وضع يده على حافة الزجاج كما كان يفعل في طفولته وهو يستكشف الأمكنة الجديدة. ردّد في نفسه بيتين لأبي تمام:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ما الحـــب إلا للحبيـــــب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى
وحنينه أبـــــدا لأوّل منزل

هل تُنقش كلّ البلاد في أدمغة أبنائها الذين وُلدوا وترعرعوا فيها، أم لطنجة سحر المكان؟ رغم كل التحولات التي مسّتها، كان يحسُّ بأنّ المدينة التي عرفها ما زالت تتذكّره. رائحة الرطوبة في الأزقة الضيقة للمدينة العتيقة ما زالت عالقة في خيشومه، وقبر ابن بطوطة يثير فيه حنينًا إلى السفر، ودرابك «حمادشة» كأنها تنويم مغناطيسي تجرهم كل مساء جمعة إلى الباب الصغيرة للزاوية، فيشرئبون بأعناقهم الصغيرة إلى وسطها حيث تتحيّر النساء بشعورهن المسدلة وسط حلقة من الزائرات ومقدم الزاوية. أصوات الذّاكرين القادمة من الزاوية الصديقية بعد صلاة عصر الجمعة كأنها حلم صغير تدغدغ الذاكرة، وتجعل لهذا اليوم طعمًا خاصًّا في الحي. الكّرة التي لا تكاد تستقر في قدم حتى تتدحرج في عقبة أمراح. التجمع المسائي في باب العصا لسماع قصة فيلم من «عبد الإله دُبيزة» أحد المحظوظين الذين حالفهم الحظ في دخول سينما «كازار» أو «كابطول».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

واجه «بروس لي» عبد الجبار رغم قامته الطويلة. كان يفلت من ضرباته القاضية ويوجه له ضربات م تكن تؤثر فيه. اضطر «بروس لي» إلى الاعتماد على ركبة العملاق والارتفاع بخفة نحو وجهه وتسديد الضربة القاضية. طارت أسنان عبد الجبار وسقط كعمارة شاهقة.

توقف الراوي وقام «حنيفزة» وقد استبد به الحماس، وأحسَّ بجسمه يأكله، فصاح بأعلى صوته:

- كاملين بكم عليّ!

تحلق الجمع حول «حنيفزة» وأوسعوه ضربًا ولكمًا وركلًا، وهو يخلط بيديه في الهواء ويركل برجليه كيفما يشاء. توقفت المعركة وعاد الجميع إلى متابعة الحكاية، وجلس «حنيفزة» منفوش الشعر مبعثر الحواجب برضوض على وجهه وخدوش على عنقه، وهو يهزُّ كتفه ليعدّل القميص الذي فقد نصف أزراره.

بعد عبد الجبار العملاق، سيواجه «بروس لي» بطل العالم في الكارطي «تشك نورس». مزق قميصه بعد أن تجنب ضرباته القاتلة، واقتلع جزءًا من شعر صدره بقوة، فأطلق صرخة قوية.

انطلقت صرخة قوية من خلف مقهى الدالية:

- أولد الحرام! فين عملتي فلوس الما والضاو؟ والله لا بقات فيك!

يقفز «عبد الإله دبيزة» فوق الرؤوس، ويذوب وسط الأزقة المظلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان شروخان صغيرًا عندما قتلت العصابة أباه؛ لأنه رفض أن يبيع لهم أرضه. بقيت صورة زعيم العصابة راسخةً في ذهنه، وعندما كبر، قرر أن ينتقم، وبدأ بالبحث عنه. تعرّف على فتاة جميلة

في الجامعة، وقرر أن يتقدم إلى خِطبتها بعد التخرج. حصل على المرتبة الأولى، وعينته الدولة في إحدى وزاراتها. وعندما ذهب لخِطبة الفتاة، اكتشف أن أباها هو زعيم العصابة. صارح الفتاة بالأمر لتخبره أنه ليس أباها، بل هو شرير خطفها من عائلتها عندما كانت صغيرة، ورباها في بيته، كما أخبرتها بذلك الخادمة، وهي أيضًا تخطط للانتقام منه.
قبل أن يتمُّ «عبد الإله دبيزة» سرد أحداث الفيلم تظهر أمّه مرة أخرى، وهي تحمل عصاها وتصرخ:
- أجي أولد الحرام! عاود سرقت فلوس الكرا باش تدخل نسنيما؟
تمرّر سبابتها على طرف لسانها وتمسحها فوق جدار مقهى الدالية، وهي وتصيح:
- والله يا باباك لا بقات فيك!
يطلق عبد الإله ساقيه للريح، ويختفي وسط الدروب الضيقة، ويتركهم في خيالاتهم الخصبة الصغيرة، كل واحد منهم ينتقم من زعيم العصابة بطريقته الخاصة.
كان كثيرًا ما يربطه إلى جذع شجرة، ويخلع ملابسه، ويضربه بالصندل البلاستيكي على فخذيه أو يقرصه بأظافره، وهو يصيح:
- آلهودي والله وتعاود!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تذكر يوم الرّحيل إلى البيت الجديد في السواني. شباب الحي يساعدونهم في نقل الأثاث إلى السيارة فورد التي تنتظر في ساحة القصبة. الجيران يودّعونهم بعيون دامعة:
- والله يا «لا رحمة» ما سخينا بكم!
- حتى حنا يا «لا عايشة» والله عالم.
- اوا ما تتساوناشي! مرة مرة طلوا علينا!
- إن شاء الله. الله يا ودي! ماشي قليل ما دوزنا معا بعطنا.
الأشجار تناديه، وملاعب كرة القدم في فال فلوري تحنو عليه. طيور «عيشة قرعة» تطير بعيدًا بعد أن أفلتت من المصيدة التي عُلقت فيها «القريرة»، ظلاله في أزقة السواني تراقبه. كلاب غرسة الغضباني يعلو نباحها كلما مرّوا بالقرب من الزّرب. حمام التوزاني زادت حرارته ووالده يفرك جسده بكيس خشن يكاد يقلع جلده، وشبح الطباخ وسط بخار كثيف يدهن أحد الزبائن بالصابون البلدي أو يُحرك يده اليمنى في إيقاع رتيب، وهو يفرك ظهره كأنه يقطع شجرة بلوط بمنشار. والطراح الحافي القدمين، الذي يحمل وصلة الخبز إلى فران الحلوى يصيح «عياو عياو»، والأطفال خلفه يطاردونه: «آ الطراح! الله يعطيك السخانة والرواح». في كدية الحماري ما زال بعض شباب الحي يتقاتلون بالسكاكين الحادة بعد كل مقامرة، «زبيطة» و«لوكو» و«عندالية» و«شكاوتش» و«الغماري» و«الريفي»... يطاردهم المخازنية الذين يظهرون فجأة من جهة قهوة عبد الرحمن، بهراواتهم السوداء الصغيرة، فيقفزون كجراد صحراوي.
من فوق تلّة الحماري يقف أبناء حي «دشار جديد» يلوحون بمقالعهم الطويلة في مناوشة يائسة. رحيمو الجبلية تنشر الحصير الذي امتلأ بالبول أمام بيتها، بينما زوجها حميدو يدفن الفئران التي قتلها السمُّ. عيشة المغوغية تحك بحجر أملس جلود الخرفان بعد أن غسلتها وملّحتها وعرّضتها ساعات للشمس الحارقة، والسعدية تنقي صحن العدس الموضوع بين فخذيها، وإلى جانبها تقف ابنتها حنان وقد غطت رأسها بسبنية خضراء تسيل من تحت شراشفها خيوط من حناء. بنات «لافاطمة

الكرفطية» يعركن زربية انطفأت ألوانها بأقدامهن بعد أن أفرغن عليها سطولًا من الماء ورششن عليها نصف علبة صابون.
فطومة العوراء تجلس على كرسي خشبي وتسند ظهرها إلى الحائط الأزرق، وتمدُّ ساقيها للشمس وهي تنتظر عودة ابنتها «نعيمة» التي هربت إلى مكان مجهول، بعد أن حملت من صاحب المعمل الذي كانت تشتغل فيه في المرسى.
إلى جانبها كانت فاطمة العروبية تنقي الحمص والفول لكي تبخرها في طنجرة كبيرة، قبل أن يحملها زوجها «سي قدور» في عربة صغيرة إلى باب مدرسة مولاي عبد السلام ليبيعها للتلاميذ الصغار الذين يخرجون بعد نهاية الحصص كسلاحف متمردة.
بعض شباب الحي يلعب كرة القدم خلف بيت «لاريحمو»، وزوجها يتربص بهم قبل أن يغرس سكينه في الكرة البلاسكتية، إذا أسعفه الحظ في الإمساك بها، فيندلق منها الهواء، وتخرُّ على الأرض كغشاء بازلاء. بعضهم الآخر يلعب «البومبات»، بينما ينصرف الآخرون إلى لعبة «أربعة حجيرات» أو يتزحلقون على «الكاروسة د بولنشي». في حين كان «عبد الله ايزا» و«عبد الرحمن البوال» يحضران «حلوزة» وعيونهما تدمعان بفعل الدخان المتصاعد من الأثافي المحشوة بالورق والكرطون. تمرُّ من بعيد فتاة متأبطة ذراع شاب. يتوقف الجميع عن اللعب، ويطاردونهما بالحجارة، وهم يصيحون: «آ الجدادة والفروج! آ الجدادة والفروج!».
الطفلات الصغيرات يخططن ببقايا الجبص أو الطباشير بيتًا للعب «شريطة»، بينما تنصرف فتيات أكبر منهن إلى لعب «اللاستيك» أو «كرومو».
يمرُّ الحاج عبد السلام الزّيدي، فينادي على إحداهن، ويطلب منها أن توزع حلوى جبالة على أطفال الحي، ثم يمضي إلى بيته حاملًا تحت جلابيته المخططة دلاحة ضخمة. يَصلُ إلى البيت وينادى على زوجته:
- قطعي هذه الدلاحة، وذوّقي الجيران عندك يكونوا شافوها وأنا داخل بها!
حميدو البوهالي ما زال يصرف الزبائن الذين تجمعوا أمام بيته:
- بغينا الكيف ديالك آ حميدو! ماكاينش ختا!
فيرد عليهم بهدوء ورباطة جأش:
- ما بقاتشي عندي ديك السلعة، سيروا من دابا خمس سنين عاد توجد فحالها.
ثم يردد في نفسه:
- العيال كبروا يا أولاد الحرام! باقي غير هاد الفرخ الجديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان لحميدو البوهالي سبعة أولاد، آخرهم ولد قبل شهر، ولم يكن في بيته إلا حصير مهترئ بفعل بول العيال اليومي وأشعة الشمس التي تعرضها عليها زوجته «يامنة المغوغية» كل صباح. كان حميدو يقضي نهاره في كتابة الأحراز والحجابات للنساء، والتعزيم على النتوءات الجلدية الزائدة«البورقايش»، بينما يَصْرفُ شطرًا من الليل في بيع قسيمات الكيف
في يوم من الأيام، خطرت على باله فكرة جهنمية. فبعد أن اشترى حصيرًا جديدًا، قصَّ الحصير القديم بسكين حاد وخلطه بالكيف، وبدأ يبيعه للزبائن. الخليط الكيميائي الجديد يُؤتي أكله ويعدل الأمزجة المقلوبة. شاع خبر «كيف حميدو» الأسطوري، وقصده الرواد من «السواني» و«دشار

جديد» و«فال فلوري» و«المصلى» و«مسترخوش»، بل وصل صداه حتى «بني مكادة» و«بوخشخاش». وتناسلت الشائعات كفيروس خريفي:
- هذه الكيف جابها من كتامة!
ويصيح آخر:
- لا هذي الكيف د الريف!
ويهتف ثالث:
- لا آ صاحبي! هذي الكيف ديال بوحمد، العنصر د الكيف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قال الراوي الطنجي المعروف «باغزيل»: بينما نحن جلوس في حيّ السواني، نشرب كؤوس الشاي قرب حمّام التّوزاني، ونتجاذب أطراف الحديث، تارة عن الحرب بين العراقي والإيراني، وتارة أخرى عن المقابلة بين ريال مدريد والفريق الكطلاني، إذ بخلقٍ غفير قد جاؤوا من كل حدب وصوب، من حومة بلجيكا وفال فلوري وفران الروداني، وقد جذبتهم رائحة الكيف، كما يجذب المغناطيس السيف. ملابسهم رثة وشعورهم قجّة.. فتجمعوا حول باب البوهالي، ونادوا بأعلى صوتهم: أن اخرج إلينا أيها الولي! وأعطنا مما رزقك الله من كيف، وخفف ما نزل بنا من حيف. فقد استبد بنا الشّوق، حتى كدنا أن نقفز من فوق. فخرج عليهم البوهالي، ووقف عند الباب منتفخ الصدر كسلطان عثماني، ونادى عليهم أن اصبروا يرحمكم الله! فإنَّ الكيف السّليم يحتاج إلى خبرة كبيرة ورجل عليم ووقت حتى يستطيب، وقد كبر العيال ولم يعد فيهم بوّال إلا هذا الصغير المحتال. فاصبروا حتى يكبر.. قالوا وقد علا نحيبهم وأفرغوا جيوبهم: بارك الله في عيالك ووقاهم كل المهالك، وجعل لهم البرَكة في عمرك ومالك! ولكن ما دخل العيال في الدخان؟ وما علاقة الكيف بهذا الوالد اللطيف؟
قال البوهالي: هذا سر غامض وطلسم جامد، لا يعرفه إلا أهل الولاية وأصحاب الدراية. فعودوا إليّ بعد سنين، تجدوا الكيف في حرز مكين. وإلى ذاك الحين، يكون الغفور الرحيم قد عفا عنكم. آمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سلام عليك أيتُّها الطفولة البعيدة الجميلة! سلام عليك يا مراتع الصبا! يا جمالًا كان يشعُّ من تحت البراءة! كان النهار أكثر ضياءً، والليل كان أشد ظلمة، وكان الناس بسطاء وسُذجًا كالضوء. أبوابهم مفتوحة وقلوبهم مُشرَّعة. إذا جُعت فادلف إلى أي بيت تشاء، تخرج بكِسرة خبز مُبللة بزيت الزيتون أو مغموسة في حبّات السكّر، وإذا عطشت تكفيك عبارة «حبابي فيّ العطش» حتى ترتوي. سحناتهم متشابهة وملابسهم متشابهة وطعامهم متشابه. لماذا تغير الناس؟ أم أنت الذي تغيرت؟ تساءل في نفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يخفف السائق سرعته، وهو يقترب من حومة الشوك، حيث حركة الراجلين كثيفة. تظهر ساحة الثيران بطرازها الإسباني العريق، وقد تشققت جدرانها وضاعت صباغتها. تنزل السيارة بهدوء إلى ساحة تطوان، ثم تدخل إلى المحطة. الحركة دؤوبة، وأصحاب الحافلات ينادون:
- تطوان، الشاون، أصيلة، الفنيدق، القصر الصغير...
الحمالون ببدلاتهم الزرقاء يجرون في كل اتجاه، وبعض المشردين يتكومون فوق الكارطون تحت السور، بينما شرطي سمين يركل مؤخرة أحدهم. المتسولون بأذرعهم المغطاة بضمادة، وقد بدت

تحتها بقايا الدواء الأحمر. بعضهم ينظر بعيونهم التي علاها البياض، ويطلبون المساعدة لإجراء عملية جراحية لإعادة السواد إلى العين، وآخرون يدعون أنهم يحتاجون إلى دراهم ليكملوا ثمن الرحلة، وواحدة تحمل رضيعًا وتحتاج لعلبة حليب...
منذ أن كان طالبًا يرتاد المحطة كلَّ أسبوعين تقريبًا، وهم على هذه الحال. لم تكبر الرضيعة ولم يجد درهمًا لإكمال الرحلة، ولم يعد السواد إلى حضن البياض.
خرج إلى باب المحطّة، وأخذ سيارة أجرة صغيرة حملته إلى بيته في حي البرانص.
تغيرت كثيرًا يا طنجة! قال في نفسه وهو على الطريق. طالت العمارات واتسعت الشوارع، وحفرت الأنفاق على طول طريق الرباط. اتسعت تخومك أيتُّها الصغيرة الوديعة! على جنبات الطريق تظهر مقاهي فاخرة، وعلى جدران العمارات وفي اللوحات الضوئية العريضة وُضعِت إشارات ضخمة بلغة فرنسية حينًا وبالدارجة حينًا آخر؛ حروف مشوهة وكلمات مقلوبة. صُدِم للمشهد، وردّد في نفسه، هل تسعى شركات الإشهار إلى تحويل الناس إلى كائنات فقدت مواطنتها، وتحولت إلى مستهلكٍ يعيش من أجل البقاء؟ عندما تخاطب الناس بلغتهم اليومية الجافة دون لمسة جمالية فأنت تقول لهم بكل وقاحة: «أنتم كائنات جوفاء وسلعتي أفضل من كل قرفكم. هيا! تعالوا بسرعة واشتروا المنتوج!
تذكر العناية الكبيرة التي تحظى بها اللغة الإسبانية في الإشهار في إسبانيا. لغة إسبانية راقية وخطوط جميلة، وأبيات شعرية، وسلطنة تعيشها وحيدة لا منافس لها في كل الملصقات. متى يستوعب المسؤولون هنا أنَّ التطور الحقيقي ليس بهرجة وألوانًا وأنفاقًا وطرقًا سيارة، بل هو فتح طرق سيارة في العقليات التي تعرف جيدًا أنَّ مسافة كل نقطة على هذا الطريق تتحدد بمحطة الأداء، وحفر أنفاق تغوص عميقًا في ذاكرتنا الثقافية، وألوان بعدد تنوعنا الثري؟ متى يعرف هؤلاء أننا لسنا شعب «الكوكو»، بل شعب مغربي له حضارة ضاربة في أعماق التاريخ والجغرافيا؟ متى يعرفون أنه في الوقت الذي كانت فاطمة الفهريّة تبني أول جامعة في مسجد القرويين لم يكن في هذا العالم الكبير شيء اسمه اللغة الفرنسية؟
انقبض صدره وهو يحاور ذاته، قبل أن يرنَّ هاتفه المحمول. كان صوت أخته في الجانب الآخر:
- هل وصلت؟
- أجل! أنا قريب من البيت.
- الحمد على السلامة آ الحبيب ديالي!
- الله يسلمك أختي العزيزة!
وصل إلى البيت، فاستقبلته أخته بأحضان دافئة ودموع حارة:
- أخاي الحبيب توحشنااااك!
عانقها بقوة:
- حتى أنا!
كانت تشبه أمه رحمها الله. قامة مشدودة وشعر أشقر وعيون خضراء وبشرة حليبية. شمَّ فيها رائحتها، ضمَّها بقوة مرّة أخرى، وتشمّم عنقها بعمق وقد اغرورق العالم في عينيه. اجتمع حوله طفلاها ياسين وليلى فعانقهما بقوة. بادل زوج أخته العناق، وفتح الحقيبة وقدم هدايا للصغيرين؛ ملابس ولُعبًا إلكترونية؛ دُمية تفتح عينيها وتغلقهما، ومسدسًا يطلق طقطقات قوية، وقطارًا يمشي

على سكة دائرية، وعلب حلوى وشوكولاتة. قدم هدية لأخته؛ سلسلة وأقراطا ذهبية، وأهدى زوج أخته قميصًا وساعة ثمينة:
- بارك الله فيك آخاي! والله يخلف عليك!
- كيف حال كريستنا؟ لماذا لم تحضرها معك؟
- هي بخير الحمد لله!
سكت قليلًا، ثم أضاف:
- أما عدم حضورها فهذا موضوع آخر، سأحدثُك عنه لاحقًا.
- تبدو ظريفة من خلال الصور!
- وفي الواقع هي كذلك!
قالت بنبرة أسف:
- خسارة! كنت أودُّ التعرفَ عليها، ولو أنني لا أعرف الإسبانية.
نظر إلى السقف وتنهد بعمق وقال:
- أجل، فعلًا خسارة!
انصرف الطفلان للعب، بينما جلس هو وأخته وزوجها في الصالة يتبادلون الأحاديث. تسأله عن أحواله في إسبانيا وتهنئه على حصوله على الإقامة. قالت بأسى:
- لو كان أمي وأبي على قيد الحياة لفرحا كثيرًا بعودتك.
صمتت قليلًا وكأنها تستجمع قوتها، ثم أضافت:
- ماتا حزنًا عليكما -رحمهما الله-.
قهرته كلماتها، وانحبس لسانه، وأحسَّ بجفاف حلقه. شيء من غمام طاف بعينيه. طلب منها أن تحضر له كأس ماء، ثم تمالك دموعه وغير مجرى الحديث مع زوج أخته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان في المترو، في طريقه إلى العمل، في «بلاصة مايور دي مدريد» صبيحة يوم بارد من شهر يناير عندما رنَّ هاتفه. كان خاله على الجانب الآخر من الخط:
- البقاء لله، أمك رحمها الله! الله يبدل المحبة بالصبر!
سقط لسانه للحظة وهو يحاول استيعاب الموقف، قبل أنْ يطلقَ صرخةً مدويةً ويخبطَ برأسه في المقعد المقابل، ويضربَ بمقبضه على جانبيه ويغيبَ في نشيجٍ عميقٍ.
جاءه صوتٌ بعيدٌ بلهجة شمالية كأنه آتٍ من قاع المحيطات:
- ياك لاباس آ الخاوا؟!
- ماتت الوالدة!
تلفظ بها بأنفاس متقطعة.
- لا حول ولا قوة إلا بالله، الله يعظم الأجر آ الخاوا ويرزقك الصبر!
إحساس غريب انتابه حين سمع اللهجة الطنجاوية في تلك اللحظة الفاصلة من حياته.لم يعاوده ذلك الإحساس إلا بعد بسنوات عندما كان يقرأ قصيدة للشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف:
أسمعت وقع لغتي الأم غائمًا
فانتعشت، وأدركت وقتها،
أن من يشفيني ليس الطبيب

ولا الحكيم، بل لغتي الأم.
لا يعرف الشخص الذي رافقه، ولا كيف عاد إلى البيت، ولا كم من الوقت استغرقه في بكاء متقطع، وهو ملقى على بطنه فوق الفراش، ولا عدد مكالمات العزاء والمواساة التي ردَّ عليها في تلك الأيام السوداء.
أصابته حالة من الاكتئاب. يبكي ليلَ نهارَ. تهاجمه الكوابيس وتأتيه الخواطر من كل مكان فيدخل في ما يشبه الهلوسة:
«لماذا ترحلين الآن يا أمي؟! يا حضن شربنا منه حليبًا وحنانًا! كيف انكسرت كبلورة جرحت شظاياها القلوب؟ كيف ترحلين ولم تنتقي لي عروسًا، ولا سهرتِ على تفاصيل حفل الزفاف، ولا أغلقتِ غرفة النوم بإحكام بعد أن اطمأننت عليها، ولا استقبلت العروس بالتمر والحليب؟ ما كنتُّ أعرف أن الشمس تنطفئ، وهذا الماء ينبلع، وهذا القمر المنير يصير يومًا هباءً؟
يا غالية!
يا من مررت كنجمة عالية!
ونعرف أنك واحدة لا نظير.. لا شريك
لا ثانية.
كانبثاق الشمس وسط هذا الغبار
كتفاحة آدم يمسحها ضوء النهار
كعشاء المسيح الأخير
وسفينة نوح
فرّت من غضب البحار.
يجلس على شرفة البيت بمنامته الرمادية. يضع رجلًا فوق أخرى. يرتشف فنجان القهوة المرّة، ويطلق قصيدة «أمي» لمحمود دروش على اليوتيوب. يأتيه صوت مرسيل خليفة الشجي على إيقاع العود:
أحن إلى خبز أمي
وقهوة أمي،
وتكبر في الطفولة
يومًا على صدر يوم،
و أعشق عمري
لأني إذا مت
أخجل من دمع أمي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أيها الزمن الغادر! كيف حرمتني من تقبيل جبهتها ويديها ورجليها والصلاة عليها ووضع جسدها الطاهر بيدي هاتين في مثواها الأخير العميق، وأنا أقرأ مع الجموع: «اللهم إنَّ صاحبتنا قد نزلت بك وخلفت الدنيا وراء ظهرها وافتقرت إلى ما عندك، اللهم ثبّت عند المسألة منطقها ولا تبتلها في قبرها بما لا طاقة لها به، وألحقها بنبينا عليه السلام»، ثم أوزع الخبز والتين المجفف على المعزين، واصطف مع عائلتي في باب مقبرة سيدي عمر لتلقي العزاء؟
- الله يعظم الأجر!

فأردّ على المعزين:
- آجرنا وآجركم في الموت!
ثم أزور قبرها في اليوم الثالث وأيام الجمع وفي الأربعينية، أبلُّ قبرها بالماء وأسقيها بدمع العين وأنظفه من النباتات الطفيلية وأغرسُ الريحان وأقبلُ اسمها المكتوب على الشاهد..
أيها الزمن الغادر والغدار والمغدور! ما أقساك! ما أقساك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يخرج من نوبة بكاء ليدخل أخرى. استمر الحال أيامًا، لا تخفف عنه سوى كلمات الأصدقاء والاتصالات البعيدة وحبات من المهدئات.
يتذكرها وهو يتناول فطوره في المطبخ، وهي تتحرك أمامه كنحلة نشيطة. تغسل الأواني وتزيل رؤوس السمك وأمعاءها، وتقشر الخضروات، وتغمض إحدى عينيها وقد حرقها رذاذ البصل، وتحرك الطنجرة، وتتذوق الطعام وتعصر البرتقال. يتذكرها يوم عيد الأضحى وهي تغسل الأمعاء وتحضر أسياخ الكبد والقلب والكلى، وتنفخ بالرابوز في المجمر، ويسمع صبيحة اليوم الثاني، وهو ما زال يتقلب في فراشه، ضربات الساطور، وهي تكسّر رأس الخروف المشوي لإعداد «سكسو بالراس». يتذكرها ويشتاق إلى سماع كلمة «الله يرضى عليك» التي تخرج من فمها كعنقود من عنب الجنة.
أعرفُ يا أمي أنك مت حسرة على أخي حسن! آه يا حسن! لقد قتلتني مرتين وتركت في قلبي كيّة لا تلتئم وجرحًا لا يندمل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان حسن شابًّا وسيمًا في بداية عقده الثالث. انقطع عن الدراسة في السنة الأخيرة من السلك الإعدادي. كان يتسلق سلم الدراسة، كما يتسلّق مقطوع اليد شجرة نخيل. حزنت الوالدة لذلك، وغضب الوالد أشدَّ الغضب، وهو الذي كان حريصًا على تعليم أولاده وتعويض ما فقده في طفولته، لكن حسن أصرَّ على قراره، فلم يكن لوالده خيار غير إلحاقه بمحله في «البلاصة الجديدة»، حيث كان يبيع مشتقات الحليب والخليع وورقة الباسطيلا. كان حسن على موعد مع الحياة. شاب وسيم المحيا أبيض البشرة أخضر العينين، يميل شعره إلى صُفرة قمحية، وفي ملامحه أثارٌ أندلسية ورثها عن والدته على ما يبدو. متوسط القمة، مفتول العضلات، يبدو صدره مشدودًا، خاصة عندما يتعمد فتح أزرار قميصه العليا، حيث تطل سلسلة فضية معلقة على عنقه. كان مواكبًا للموضة، زبونًا مخلصًا لمحلات الملابس العصرية في «سيدي بوعبيد» وعقبة «سرفانطيس». وكانت بنات الحي وبنات إعدادية ابن خلدون معجبات به، وكان هو خبيرًا في فن الإغواء. استمر حسن سنوات على حاله بين العمل في محل والده والاستمتاع بملذات الحياة؛ يلعب كرة القدم في «كامبو الشريف» أو «كامبو السواني» ويسافر مع أصدقائه، ويشاهد الأفلام الهندية الجديدة في سينما الريف أو أفلام الأكشن في سينما باريس أو الأفلام الإباحية في سينما موريطانيا، أو يجلس مع أصدقائه لساعات طويلة في مقهى الحافة لتدخين لفافات الحشيش وشرب الدكّة والتأمل في زرقة المضيق اللازوردية، أو يصاحب الفتيات إلى غابة الرميلات، خاصة جارتهم بنت الهولندي التي كانت متعلقة به أشد ما يكون التعلُّق.
عندما يعود إلى البيت، يصدح من غرفته صوت «بوب مارلي» و«كات ستيفن» و«جاك بريل» و«ناس الغيوان» و«عبد الحليم حافظ».

كان والده يعرف تفاصيل حركاته لكنه يتجنب التدخل ما دام لا يأتيه بمشاكل. أما أمه فقد كانت في «دار غافلون»، وكانت حريصة أشدَّ الحرص على التزامه بأداء الصلوات بانتظام. كان حسن يحبُّ أمه كثيرًا، وإرضاءً لها كان يتظاهر بالوضوء، ويدّعى أنه سيصعد إلى غرفته للصلاة، لكنها كانت تعرف أنه يراوغ، فكانت تمسك به أحيانًا وتجرّه إلى الصالة وتمدُّ له السجادة:

- صلّ قدامي!

استمر حسن على هذه الحال سنوات قبل أن يطرأ تغييرٌ ملحوظٌ على سلوكه. هل كان ذلك بسبب رحيل بنت الهولندي؟ لا أحد يعلم.

حلق شعره الأشقر الطّويل، ونزع السلسلة الذهبية من عنقه، واستبدل الملابس العصرية بقندورة بيضاء قصيرة يلبسها في فصل الصيف مع نعل مفتوح، وبجلباب صوفي قصير يلبسه في فصل الشتاء مع حذاء رياضي. كما استبدل القبعات الشمسية بطربوش أبيض، واحتل عود الأرك مكان السيجارة بسرعة خارقة.

ذات مساء صيفي جمع حسن ملابسه القديمة وأحرقها وسط غرسة «أجانة». عاد حسن إلى قراءة الكتب بعد أن كان قد انقطع عنها لمدة طويلة. كانت عناوينها مثيرة، وكان يتعمد أن يراها جميع أهل بيته من قبيل: «عذاب القبر وأهواله» و«القول اليقين في أوصاف الحور العين» و«عقوبة تارك الصلاة».. لكن بعضها الآخر كان يحرص على إخفائها عن أعين المتطفلين مثل كتاب «آيات الرحمن في جهاد الأفغان» وكتاب «فقه الجهاد» وكتاب «القول المبين في تكفير المرتدين».

كان يُقبل عليها بشغفٍ، ويغلق باب غرفته بالمفتاح إذا خرج إلى العمل. غابت الموسيقى وحلت محلها شرائط الشيخ كشك بصوته الجهوري وخُطَبِه النارية. تغيرت وجوه أصدقائه وملابسهم، وأصبح البيت مقصدًا لأصحاب اللحى الطويلة والجلابيب القصيرة، يقضي حسن معهم كلَّ أوقاته بعد العودة من العمل، إما أمام باب المسجد بعد صلاة العشاء أو في غرفته. أصبح عدوانيًّا تجاه أهل الدار، وخاصةً أخته. كان في البداية يرغِّبها في ارتداء النقاب، ويحرّضها على تجنُّب الخروج دون مُحْرِم، لكنه عندما يئس أعرض عنها ولم يعد يكلمها إلا أمرًا. وكان كثيرًا ما يدخل في نقاش ساخن مع أخَيه بسببها:

- النقاب فرض على المرأة المسلمة.

- البنت ما زالت صغيرة والمسألة فيها خلاف بين العلماء.

- تقصد خلاف بين علماء السنّة وعلماء السلطان!

- وما دخل السلطان في مسألة الحجاب؟

- السلطان الظالم يريد أن يتفرج على عورات المسلمات.. وأنت أيضًا ترتكب معصية بحلق لحيتك، فحالق اللحية ملعون وصلاته باطلة كما جاء في الحديث. ففيها تشبُّه بالنساء.

- الفرق بين الرجل والمرأة ليس في اللحية فقط. لقد أودع الله فيهما خصائص مختلفة بدءًا بالصوت وانتهاءً بالهيئة. وعلى العموم آثار اللحية على وجهي بارزة حتى ولو لم تنبت فيها أي زغبة. ولحية بنت السعدية جارتنا أكبر من لحيتي.

قهر ضحكة كادت تنفجر، لكنه سرعان ما تمالك نفسه واستعاد رباطة جأشه:

- الرسول صلى الله عليه وسلم كانت لحيته طويلة بمقدار مقبض اليد.

- كانت إطالة اللحية عادة العرب قبل ولادة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قد قال لنا: «صلوا كما رأيتموني أصلي» ولم يقل: «أطيلوا لحاكم كلحيتي».

وما قولك في الحديث: «قصوا الشوارب واعفوا عن اللحى».
- قد يكون المقصود بالعفو هنا إزالة ما علق بها من شوائب زائدة، لا مجرد الإطالة.
- يبدو أنك أشعري من أهل التأويل!
- اللغة أغلبها تأويل وأكثرها مجاز، وبه تختلف الأساليب، وهو من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم، إلا إذا كنت تنكره.
كان حسن يرتبك كلما رفع أخوه سقف الحديث، لهذا كان ينهي النقاش دائمًا بعبارة:
«اللهم إني قد بلغت فاشهد».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان في سنته الأخيرة في جامعة محمد الخامس بالرباط، وهو يستعد لمناقشة بحث الدراسات العليا المعمقة حول موضوع «التراث الصوفي في الفكر الفلسفي العربي المعاصر» عندما جاءه صوت أمه المرتبك:
- أخوك حسن م يعد إلى البيت منذ يومين، ولا أحد يعرف أين ذهب.. هاتفه مغلق!
حاول أن يخفّف عنها، وانتظر يوم غد، ثم عاود الاتصال بالبيت. ردت أخته وهي تبكي:
- لا، لم يعد بعد.
أخذ القطار المسائي المتجه إلى طنجة، عندما وصل، كان البيت يشبه مقبرة المجاهدين. أمه تبكي وتنشج، وهي تردد:
- آوليدي الحبيب! فين مشيتي؟
أخته تواسيها وقد تحلق حولهما الجيران، وهم يحوقلون:
- ما عندو فين يمشي آلا رحمة، دابا يرجع، غير صبر!
- عندك يكون تبع بنت الهولندي؟
- لا. بنت الهولندي مابقاش كيمشي معها!
- عندك يكون حرك نسبانيا؟
- لا حول ولا قوة إلا بالله.
أبوه كان قد انهار فوق أريكة وسط الدار. حاول التخفيف من قلق الجميع لكن دون جدوى. قال الوالد بصوت مبحوح:
- لقد سألنا عنه في دوائر الشرطة وفي كل مستشفيات طنجة ولا نتيجة!
- هل سألتم أصدقاءه ومعارفه؟
- أغلبهم اختفى. بقي ولد الغمارية وحميدو الكرفطي ولكنهما لا يعرفان شيئًا عنهم.
صعد الأخ إلى غرفة حسن، تفحصها جيدًا. الكتب مصفوفة بعناية، وإلى جانبها مجموعة من أقراص مدمجة، بعضها كتب عليها بقلم فاتر «جهاد الأفغان» و«ملاحم الشيشان» و«أخبار البراق من جهاد أرض العراق».. لفت انتباهه ملف أصفر موضوع على المكتب. قرأ عنوانًا عريضًا «دستور الدولة الإسلامية». انتابه قلق خفيف، فقلب الصفحة الأولى وبدأ يقرأ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البند الأول: تسعى الدولة الإسلامية إلى تحرير جميع الدول الإسلامية من الطغاة والمحتلين، ودحر أنظمة الكفر وعملاء الاستعمار، وإحلال الشريعة الإسلامية محل الشرائع والقوانين الوضعية، وتطبيق مبدأ الشورى في اختيار الحاكم، ورفض الديمقراطية الكافرة.

البند الثاني: تسعى الدولة الإسلامية إلى نشر الإسلام في كافة بقاع العالم بالتي هي أحسن، وإذا رفض اليهود والنصارى اعتناق الإسلام فإما أن يؤدوا الجزية وهم صاغرون، أو يقتلوا. مصداقًا لقوله تعالى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ}. أما الكفار من المجوس والهندوس والوثنيين فيخيرون بين الإسلام والقتل.
البند الثالث: يعتبر الحق في التعليم والتطبيب والأمن من واجبات الدولة الإسلامية على رعاياها. وتُمنع المدارس المختلطة، وتدرس الفتيات المسلمات من السابعة إلى حدود الخامسة عشرة، ويدرسن القرآن واللغة العربية وبعض قواعد الفقه الضرورية والأعمال اليدوية؛ كالطبخ والخياطة.
البند الرابع: يُحدد سن الزواج بالنسبة للفتيات في سن التاسعة، ويختن في سن مبكرة، وتُمنع النساء من الاختلاط بالرجال في الأماكن العامة، ولا يخرجن إلا للضرورة الملحّة، ويسهرن على تربية أولادهن تربية إسلامية صحيحة ورعاية شؤون بيوتهن، وتُمنع عمليات التجميل ووضع ثقوب في الجسم وفتح محلات حلاقة النساء وتزيينهن.
البند الرابع: يجوز للرجال الزواج بأربعة، وشراء الجواري والسبايا التي يمنُّ الله بها على المجاهدين. وسيصدر قانون تنظيمي يحدّد أثمانهن وطرق انتقال ملكيتهن.
البند الخامس: تُغلق جميع الخمارات ودور السينما والمسارح ومعاهد الموسيقى والرقص وقاعات الألعاب ومحلات بيع الملابس العصرية. وتُمنع جميع كتب المعتزلة والأشاعرة والمتصوفة والشيعة والفلاسفة والروايات والمسرحيات ودواوين الشعر التي تدعو إلى الرذيلة من المكتبات العامة، وتهدم جميع التماثيل الوثنية، سواء أكانت في الساحات العامة أو في المتاحف.
البند السادس: تمنع البنوك الربوية، وتغلق مؤسسات القروض بالفائدة ومؤسسات التأمين الصحي والتأمين على الحوادث وما شابهها من مؤسسات لا أساس لها في شريعتنا، إلى حين تأسيس بنك إسلامي يحترم ضوابط الشريعة الإسلامية.
البند السابع: يبقى العمل بالدولار الأميركي الكافر إلى حين إصدار عملة ذهبية جديدة تحمل شعار الدولة الإسلامية.
البند الثامن: يعدم أمام ملأ من المؤمنين كلُّ من لا يدين بدين الإسلام. ويعدم كلُّ عملاء الكفار ومن يتعاون معهم، وتُقطع يد السارق وتُرجم الزانية والزاني المحصنان حتى الموت، ويُلقى باللواطيين والسحاقيات من أماكن عالية، ويُجلد الزاني والزانية غير المحصنين. كما يُجلد المتخلف عن صلاة الجماعة من الرجال البالغين إذا تجاوز غيابه ثلاث مرات دون عذر مقبول.
وبينما هو منهمك في القراءة وقد تملكته الصدمة، رنَّ هاتفه رنة تشير إلى وصول رسالة. كان الرقم غير مسجلٍ في هاتفه. وأرقامه التسلسلية الأولى لدولة أجنبية. فتح الرسالة وقرأ:
«أخي العزيز! أنا حسن. أرجو أن تخبر أمي وأبي أنني بخير، وأرجو من الله أن يسامحاني وأن يدعوا لي بالجنة. لقد أرسلت إليك رسالة عبر بريدك الإلكتروني».
فتح حاسوب أخيه حسن، وأدخل عنوانه الإلكتروني، كان أول ما طالعه رسالة كتب فيها: «إلى أخي العزيز».
ضغط بارتباك وسرعة بالفأرة على الرسالة، فانفتح الجحيم في وجهه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على آله وصحبه وسلم. أما بعد: أخي العزيز! أعرف أن القرار الذي اتخذته صعب جدًّا، خاصة على والدتي ووالدي. لكن نداء الله لنصرة دين الحق أقوى

من كل صوت، ورابطة العقيدة أقوى من رابطة الدم. وقد قال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».
لقد وصلنا إلى تركيا، ونحن الآن في طريقنا إلى الحدود العراقية للالتحاق بإخوتنا المجاهدين لمحاربة الطاغوت الأمريكي الذي دنَّس المقدسات، وانتهك الحرمات، وقتل المسلمين في كل مكان. وإنها لمعركة حتى النهاية، فإما نصر من الله أو شهادة في سبيله.
أخوك الطالب لرحمة الله حسن».
أعاد قراءة الرسالة مراتٍ عديدة. أمسك برأسه وقد أحسَّ بدوارٍ شديدٍ. استلقى على فراش أخيه يحاول استيعاب الموقف. لم يكن يتوقع أن يصل الأمر إلى هذا الحدٍ؟ كيف ينقلب في مواقفه بهذه السرعة الجنونية؟ وأي قوة يمتلكها هؤلاء لتغيير فكر شاب مفعم بالحياة إلى رغبة جامحة في الموت؟ كيف سأواجه والديّ بالخبر؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.
نزل إلى الطابق الأول، وقد استجمع قوته وحاول تمالك أعصابه.
- الحمد لله! لقد اتصل بي حسن.
هبَّ الجميع نحوه وقد تبدت على محياهم علامات الدهشة الممزوجة بالترقب. صاحت أمّه:
- أين هو؟
- لقد سافر إلى تركيا.
- تركيا؟! صاح الجميع بصوت واحد:
- أجل! تركيا.. قال إنه ينوي العبور منها إلى ألمانيا، وهو يريد أن يبدأ حياته هناك؟
ضرب الوالد كفًّا بكف وهو يحوقل، وصاحت الأم:
- لم يكن ينقصه شيء هنا!
- تعرفين يا أمي طيش الشباب! اتركيه يبني مستقبله ويعيش الحياة كما يشتهيها!
- حرام عليك آوليدي حسن! لو أخبرتنا بالأمر!
رد عليها بلطفٍ:
- خاف أن تمنعاه من الرحيل. الآن ما حصل قد حصل، ولا يبقى لنا غير الدعاء له بالخير والحفظ.
أرسل لأخيه حسن رسالة عبر البريد الإلكتروني، وأخبره بالكذبة التي غطى بها على حماقته، وطلب منه أن يتواصل معهم بهاتف البيت ليطمئن والديه.
اتصل مرتين أو ثلاث قبل أن ينقطع خبره نهائيًّا. بعد أربعة أشهر من رحيله جاء رجلان من الشرطة إلى البيت يبحثان عن والده. أخبراه أن ابنه مات في عملية انتحارية في العراق، وأرياه شريط فيديو لحسن وهو يعانق أصحابه عناق الوداع، ويركب شاحنة كبيرة انطلقت بسرعة صوب قاعدة عسكرية لتنفجر تحت صيحات التكبير، مخلفة وراءها كتلة من جحيم أصفر، وخسارة فادحة لبيت لم يعرف غير الحب والفرح.
مات حسن، وماتت معه الفرحة في البيت. دخلت الوالدة في حالة من الاكتئاب الحاد، وطافت بوجه الوالد سحابة من حزن، وانطفأ قنديل السعادة في بيتهم إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

Table of Contents

إهداء..
إشارة
المقام الأول: مقام العودة